الفصل الثانى

القرآن الكريم

- تعريف القرآن الكريم
- الغرض من إنزال القرآن الكريم
- جوانب الهداية والإرشاد فى القرآن الكريم
- إعجاز القرآن الكريم
- القرآن والعلم
- ترجمة القرآن الكريم

obeikandl.com

obeikandl.com

القــرآن الكــريـم

● تعريف القرآن الكريم :

المشهور بين علماء اللغة : « أن لفظ القرآن فى الأصل مصدر مشتق من قرأ . يقال : قرأ قراءة وقرآنا ، ومنه قوله تعالى « **إن علينا جمعه وقرآنه * فاذا قرأناه فاتبع قرآنه** »[١] ـ أى قراءته .

ثم نقل لفظ القرآن من المصدرية وجعل علما شخصيا[٢] على الكتاب المنزل على محمد ﷺ .

وعلماء الشريعة يعرفون القرآن : بأنه كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ بلفظه ومعناه ، والمنقول الينا بالتواتر .

وبعضهم يزيد على هذا التعريف قيودا أخرى ، مثل : المعجز ، أو المتحدى بأقصر سورة منه ، أو المتعبد بتلاوته ، أو المكتوب بين دفتى المصحف ، أو المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس .

والواقع أن التعريف الذى ذكرناه آنفا تعريف جامع مانع ، لا يحتاج الى زيادة قيد آخر ، وكل من زاد عليه قيدا أو قيودا مما ذكرناه لا يقصد بذلك الا زيادة الايضاح بذكر بعض خصائص القرآن التى يتميز بها عما عداه .

ومعلوم أن للقرآن الكريم خصائص كثيرة يتميز بها عن كل ما عداه من كلام إلهى أو غير إلهى ، ككونه معجزا أو متعبدا بتلاوته .

ومعلوم أيضا ـ أن للقرآن صفات يشاركه فيها غيره من كلام الله أو كلام البشر ، ولكنها صفات لازمة لا تنفك عنه ، لأنها من عناصر قرآنيته ،ولو أنها انفكت عنه لخرج عن كونه قرآنا ، وذلك كوصف كونه عربيا الذى يشاركه فيه الحديث النبوى والحديث القدسى ، وكوصف كونه متواترا الذى يشاركه فيه بعض الأحاديث النبوية .

ونرى لزاماً علينا أن نذكر بعض هذه الخصائص والصفات بشيء من

---

(١) وهناك آراء أخرى فى أصل الكلمة واشتقاقها ـ راجع الاتقان للسيوطى ، ومناهل العرفان للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقانى ـ والأيتان من سورة القيامة : ١٧ ، ١٨

(٢) يرى بعض العلماء أنه علم جنس يصدق على القرآن كله وعلى أبعاضه . وكونه علما شخصيا هو الراجح ـ راجع مناهل العرفان .

obeikandi.com

التفصيل والايضاح حتى لا يقع لبس او خلط بين ما هو قران وما خرج أو هو خارج من الأصل عن كونه قرانا :

١ - فمن خصائص القران كونه معجزا ، واعجاز القرآن خصوصية خصه الله بها من بين كتبه المنزلة على سائر الانبياء عليهم السلام ، وميزة تميز بها عن كل كلام اخر منسوب لله سبحانه ، او لاى انسان وبأى لسان .

٢ - ومن خصائص القران الكريم : كونه متعبدا بتلاوته فقراءة ما تيسر منه ركن من أركان الصلاة لا تتم بدونه ، وأيما صلاة وقعت خالية من القراءة مع القدرة عليها فهى باطلة ، وقراءة القران خارج الصلاة عبادة أيضا ، ولم نعرف مثل هذه الخصوصية ثابتة لشيء اخر من الكتب السماوية أو غيرها .

وعلى هذا فالحديث القدسي ليس قرانا مع كونه - على الصحيح - منزلا من عند الله تعالى على محمد ﷺ بلفظه ومعناه ، وذلك لأنه فقد عنصرين من عناصر القرآنية ، وهما : الاعجاز والتعبد بتلاوته ، كما فقد عنصرا آخر يأتى بعد ، وهو التواتر .

ولو ادعى مدع ثبوت بعض الأحاديث القدسية بالتواتر - وما أظن ذلك - فانها لا تكون قرآنا أيضا لفقدها العنصرين السابقين معا ، مع أن فقد واحد منهما كاف فى تخلف وصف القرآنية عنها .

٣ - ومن صفات القرآن التى لا تنفك عنه : كونه عربيا ، وفى القرآن الكريم آيات كثيرة ناطقة بأنه نزل من عند الله كذلك :

« **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** »[٣] .

« **وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها** »[٤] .

« **كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون** »[٥] .

« **نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين** »[٦] .

وعلى هذا فأى خروج بالقرآن الكريم عن لفظه العربى المنزل من عند الله يزيل عنه حقيقة القرآنية .

وإذن فتفسير القرآن الكريم ، وترجمته الى غير العربية - مهما روعى فيهما من المحافظة على معانيه ومراميه - لا يعدان قرآنا ، ولا يكون لأى منهما ما للقرآن

---

(٣) ابراهيم : ٤

(٤) الشورى : ٧

(٥) فصلت : ٣

(٦) الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥

من حرمة وقداسة[٧] ، ولا ما فيه من خاصية التعبد به وروعة الاعجاز ، لأنه خرج بذلك عن كونه كلام الله الى كونه كلام البشر ، والبشر يخطىء ويصيب ، ومحال أن تقوم عبارة انسان ـ عربية كانت أم غير عربية ـ مقام عبارة الله تعالى فى جودة معانيها ودقة مراميها ، وخصائص أسلوبها وبراعة نظمها ، وسر فصاحتها وروعة بيانها .

وهنا نستطرد الى مسألتين لهما تعلق بهذا الموضوع :

المسألة الأولى : هل معنى أن القرآن عربى أنه لا يحتوى على شىء من لغات غير عربية ؟

والجواب عن هذا : أن القرآن الكريم ليس فيه قطعا جملة مركبة بلسان غير عربى ، وانما يوجد فيه باتفاق أسماء غير عربية هى أعلام على أشخاص بأعيانهم : كإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب،وإسرائيل ، وموسى ، وعيسى . . وجودها فى القرآن لا يخرج به عن كونه عربيا ، لأن الأسماء التى وضعت أعلاما لأشخاص تبقى كما هى ، ولا يتصرف فيها عند نقلها الى لغات غير لغاتها الأصلية ، وإلا لكان معنى ذلك : ازالة الاسم عن مسماه واطلاق اسم آخر عليه لا يعرف به ولا يعينه .

وفى القرآن الكريم أسماء ليست أعلاما لأشخاص ، مثل : استبرق ، وقسطاس ، وسجيل ، ومشكاة . . . وغيرها .

وقد اختلف العلماء فى أصل هذه الأسماء :

فمنهم من قال ان هذه الكلمات مما اتفقت فيه اللغات ، فهى موجودة فى اللغة العربية وموجودة فى غيرها ، ولا يخرج بالقران عن كونه عربيا أن تكون بعض كلماته موجودة فى لغة أخرى ، لأن اتفاق بعض اللغات فى استعمال لفظ ما للدلالة على معنى معين ، لا يخرجه عن كونه أصيلا فى هذه اللغة أو فى تلك ، وإنما يخرجه فقط عن نطاق الاختصاص والانتساب الى لغة بعينها .

ومن العلماء من قال : ان هذه الألفاظ أعجمية الأصل ولا زالت أعجمية ، ووجودها فى القرآن لا يخرجه عن كونه عربيا ، لأنها قليلة جدا ، واقتباسها وادماجها فى هذه الكثرة الساحقة من الكلمات العربية التى احتواها القرآن مما يجعلها تميع وتتلاشى حتى لا تكاد تحس منها نبوة العجمة .

---

(٧) ولحرمة القرآن وقداسته لا يجوز لغير المتوضىء مس المصحف ، كما لا يجوز للجنب ولا للحائض مس المصحف ولا قراءة القرآن ، أما تفسير القرآن وترجمته فجائز مسها وقراءتها للمحدث حدثا أصغر أو أكبر ، لزوال حقيقة القرآنية عنها .

وذهب فريق ثالث من العلماء الى أن هذه الألفاظ أعجمية الأصل ، ولكنها ـ تبعا لنظرية تداخل اللغات فى فقه الله ـ استعملت من قديم وقبل نزول القرآن الكريم فى اللسان العربى ، ولانت بها ألسنة العرب حتى أصبحت عربية بالاستعمال ، ولا يخرج القرآن عن كونه عربيا باحتوائه على بعض هذه الألفاظ المعربة . وهذا الرأى الأخير هو أشهر الأقوال الثلاثة وأرجحها .

المسألة الثانية : نقل عن الأمام أبى حنيفة رضى الله عنه : أنه يرى جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة ، وزعم زاعم ـ بناء على ذلك ـ أن أبا حنيفة يرى أن القرآن اسم للمعنى فقط ، وهذا يناقض ما قلناه من أن القرآن اسم للفظ والمعنى معا .

وتوضيح المسألة : أن ما نقل عن أبى حنيفة ـ مخالفا به سائر الفقهاء حتى أصحابه ـ من جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة ، محمول على أن الصلاة مناجاة لله تعالى ، وما يقوله المصلى من معانى القرآن باللسان الأعجمى فى صلاته ، لا يقوله على أنه قرآن ، وانما يقوله على أنه مناجاة منه لله عز وجل ، والمناجاة بأى لسان جائزة باتفاق .

ولكن بعض الفقهاء من أتباع أبى حنيفة رضى الله عنه يرى ـ والحق معه ـ أن هذا التوجيه لما نقل عن أبى حنيفة من جواز القراءة بالفارسية فى الصلاة غير مستقيم ولا مقبول ، ويقرر : أن أبا حنيفة رجع عن قوله هذا الى القول بعدم الجواز(٨) .

٤ ـ ومن صفات القرآن التى لا تنفك عنه : كونه متواترا : أى رواه جمع كثير عن جمع كثير يحيل العقل اتفاقهم على الكذب من لدن سماعه من رسول الله ﷺ الى أن وصل الينا ، وروايته على هذا النحو تفيد اليقين بقرآنيته . وعلى هذا ، فما روى بطريق الآحاد ـ وهو ما لم يبلغ حد التواتر بأن رواه واحد ، أو رواه جماعة لا يحيل العقل اتفاقهم على الكذب ـ على أنه من القرآن لا يعتبر قرآنا ، لأن رواية الآحاد تفيد الظن ولا تفيد اليقين ، والقرآن لا يثبت بالظن أبدا .

واذن ، فما يروى بطريق الآحاد عن ابن مسعود أو ابن عباس أو غيرهما من الصحابة من بعض ألفاظ على أنها من القرآن : كقراءة أبىّ وابن مسعود فى

(٨) انظر الاسلام عقيدة وشريعة ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤ .

كفارة اليمين « . . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات »[٩] بزيادة لفظ « متتابعات » .

وقراءة ابن مسعود فى آية الإيلاء « فإن فاءوا فيهن فإن الله غفور رحيم »[١٠] بزيادة لفظ « فيهن » .

وقراءة ابن عباس فى آية الحج « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج »[١١] بزيادة جملة « فى مواسم الحج » .

وقراءة سعد بن أبى وقاص فى آية الكلالة « وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السدس »[١٢] بزيادة جملة « من أم » .

. . . ما يروى من ذلك ليس قرآنا ، لفقده عنصر التواتر الذى لابد منه فى تحقق القرآنية وثبوتها ، وتسمية بعض المتأخرين من العلماء له قرآنا تساهل منهم لا أراه مقبولا ولا سائغا فى مثل هذا المقام الذى يتحتم فيه الدقة وعدم التسامح فى التعبير .

والظن بالعلماء الذين تسامحوا فعبروا عن هذه الكلمات بالقرآنية : أنهم لا يقصدون أنها قراءات مروية عمن تنسب اليه من الصحابة ، وانما قصدهم : أنها تفسيرات لهم .

أو لعل بعض الصحابة كانوا يفسرون القرآن ويرون جواز اثبات التفسير بجانب القرآن فى مصاحفهم التى كانوا يكتبونها لأنفسهم ، فظنها بعض الناس ـ لتطاول الزمن عليها ـ من أوجه القراءات التى صحت عن رسول الله ﷺ ورواها عنه هؤلاء الأصحاب .

ومهما يكن من شىء يقال فى توجيه تسميتها قرآنا فهى ليست من القرآن فى شىء ، ومن يحتج بها من الفقهاء لا يحتج بها على أنها قرآن ، وانما يحتج بها على أنها من قبيل أخبار الآحاد التى تروى عن رسول الله ﷺ ، وأخبار الآحاد مما يجب العمل به وتقوم به الحجة الا فى باب العقيدة .

٥ ـ ومن صفات القرآن اللازمة له : كونه منزلا على محمد ﷺ ، ومعنى هذا : أن ما أنزل على غيره من الأنبياء لا يكون قرآنا حتى ولو حكاه القرآن الكريم ، على معنى أن ما جاء فى التوارة ـ مثلا ـ من قصص أو أحكام ، ثم جاء القرآن

---

(٩) أصل الآية فى سورة المائدة رقم ٨٩

(١٠) أصل الآية فى سورة البقرة رقم ٢٢٦

(١١) أصل الآية فى سورة البقرة رقم ١٩٨ .

(١٢) أصل الآية فى سورة النساء رقم ١٢ .

بعد يحكيها ، لا تكون قرآنا حين نزلت على موسى ولا حين دونت فى ألواح التوراة . أما ما حكاه القرآن من ذلك بعد ، فهو قرآن من عند الله تعالى ، نزل به جبريل على قلب النبى محمد ﷺ ، ولا يخرجه عن القرآنية أن يكون مضمونه موجودا فى التوراة من قبل .

ونزيد ذلك ايضاحا فنقول :

ان القصة لها مضمون تناولته التوراة ، وتناوله القرآن ، والذى حكى القصة فى الموضعين هو الله سبحانه . . حكاها فى التوراة بأسلوب خاص ، وأنزلها على موسى عليه السلام بلسان قومه فكانت من التوراة . وحكاها فى القرآن بأسلوب خاص ، وأنزلها على محمد ﷺ بلسان قومه فكانت من القرآن .

والآيات القرآنية التى تضمنت أحكاما كانت شرعا لغيرنا وكانت مدونة فى كتبهم المنزلة كقوله تعالى : « **وكتبنا عليهم فيها**[١٣] **أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص** . . »[١٤] لا تخرج بذلك عن كونها قرآنا ، لأن الآيات التى من هذا القبيل نزلت على قلب النبى محمد ﷺ بلسان عربى ، ولا يقدح فى قرآنيتها كونها حكاية لما فى التوراة أو غيرها من الكتب .

أما الأحكام التى تضمنتها هذه الآيات فالقول الفصل فيها ما يلى :

١ ـ ان اقترنت بما يفيد نسخها بالنسبة لنا فلا تكون شرعا لنا .

٢ ـ وان اقترنت بما يفيد بقاء العمل بها فى حقنا فهى شرع لنا ، ولا نكون فى هذا متبعين لشريعة غيرنا ، بل نكون متبعين لشريعتنا التى جاء بها نبينا عليه الصلاة والسلام .

٣ ـ أما ان تجردت عن القرينة الدالة على شرعيتها أو عدم شرعيتها فى حقنا ، فهذه محل خلاف بين الفقهاء .

ففريق يقول : هى شرع لنا .

وفريق آخر يقول : ليست شرعا لنا .

ولكل من الفريقين دليله الذى يستند اليه فى توجيه مذهبه وتصويبه . وفى كتب أصول الفقه ما يغنى طالب المزيد من المعرفة .

* * *

---

(١٣) أى فرضنا على اليهود فى التوراة هذا الحكم وهو القصاص .

(١٤) المائدة : ٤٥

الغرض من إنزال القرآن الكريم

● الغرض من انزال القرآن الكريم أمران :

الأمر الأول : أن يكون معجزة لنبينا محمد ﷺ ، تشهد بصدق دعوته وحقيّة رسالته . . وسنعرض قريبا لقضية الاعجاز من جوانبها المتعددة .

الأمر الثانى : أن يكون دستورا للأمة الإسلامية : تستمد منه الهداية والرشاد ، وتستلهم منه الصواب والسداد ، وتقبس من نور تشريعه ما يأخذ بيدها الى عزّ الدنيا وسعادة الآخرة .

وصدق الله العظيم اذ يقول : « **ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** »(١) .

وصدق الرسول الكريم حين يصف القرآن فيقول :

« فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، منْ تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء،ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرّد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا : انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم »(٢)

صدق الله ورسوله : فلا عزّ إلا والقرآن سبيل اليه ، ولا خير إلا وفى آياته دليل عليه . ولقد عرف سلفنا الصالح هذا كله ، فتمسكوا بالقرآن فعزّوا وسادوا ، . . . ثم خلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب . يأخذون عرض هذا الأدنى . ويقولون : سيغفر لنا ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف فطبع على قلوبهم ، وأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون !! . .

وصدق الله العظيم : « **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى** »(٣)

---

(١) الاسراء : ٩ . (٢) رواه الترمذى فى كتاب السنن جـ٢ ص ١٤٩ ـ ط : الأميرية
(٣) طه : ١٢٤ ـ ١٢٦

جوانب الهداية والإرشاد فى القرآن الكريم

● للقرآن الكريم فى هدايته وارشاده جوانب أربعة :

١ ـ جانب العقيدة .

٢ ـ وجانب الشريعة .

٣ ـ وجانب الأخلاق .

٤ ـ وجانب الدعوة الى النظر فى ملكوت السموات والأرض .

١ ـ أما جانب العقيدة : فقد وجهنا القرآن الكريم الى العقيدة الحقّة فى الله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء .

دعانا الى معرفة الله ـ تعالى ـ وما له من صفات الكمال والجلال ، وأنه واحد لا شريك له فى ملكه ، ولا شبيه له فى ذاته ولا فى صفاته ، وأنه الخالق المستحق للعبادة دون غيره . .

فقال فى بيان ما لله من صفات الكمال والجلال :

« **قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد** »[١] .

وقال : « **الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض . . .** »[٢] .

وقال : « **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور** »[٣] .

وقال : « **هو الله الذى لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إلٰه الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم .** »[٤] .

---

(١) سورة الاخلاص

(٢) البقرة : ٢٥٥

(٣) الملك : ١ ، ٢

(٤) الحشر : ٢٢ ـ ٢٤

وقال فى بيان أن الله واحد لا شريك له فى ملكه ولا شبيه له فى ذاته ولا فى صفاته :

« اننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى »[٥] .

وقال : « ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه »[٦] .

وقال : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون »[٧] .

وقال : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون »[٨] .

وقال : « ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير »[٩] .

وقال فى بيان أنه المستحق للعبادة دون غيره :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز »[١٠] .

وقال : « أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون * ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون * إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين * ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون »[١١] .

وقال : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ، ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين * ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين »[١٢] .

---

(٥) طه : ١٤
(٦) الأنعام : ١٠٢
(٧) الأنبياء : ٢٢
(٨) المؤمنون : ٩١
(٩) الشورى : ١١
(١٠) الحج : ٧٣ ، ٧٤
(١١) الأعراف : ١٩١ - ١٩٥
(١٢) الأحقاف : ٤ - ٦

obeikandi.com

وقال : « **أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون** »[13] .

ووجهنا القرآن الكريم الى الايمان بالملائكة والرسل وما أنزل الله من كتاب فقال : « **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** »[14] .

وقال : « **يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا** »[15] .

ويقرر القرآن الكريم عقيدة البعث والحساب والجزاء .

فيقول مقررا عقيدة البعث :

« **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير** »[16] .

ويقول : « **قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم** »[17] .

ويرد على المستبعدين للبعث لبنى الانسان بعد ما تمزقت أوصالهم ورمّت عظامهم وتلاشت ذراتهم حتى انهم ليقولون مستنكرين للبعث بعد هذا التمزق والتلاشى :

« **أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون** »[18] .

« **هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد** »[19] .

« **أئذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيد** »[20] .

« **أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد** »[21] .

يرد القرآن على هؤلاء المنكرين للبعث والمستبعدين له بآيات كلها براهين قاطعة ، وحجج دامغة فيقول :

---

(١٣) النحل : ١٧

(١٤) البقرة : ١٣٦

(١٥) النساء : ١٣٦

(١٦) التغابن : ٧

(١٧) الواقعة : ٤٩ ، ٥٠

(١٨) الواقعة : ٤٧ ، ٤٨

(١٩) سبأ : ٧

(٢٠) سورة ق : ٣

(٢١) السجدة : ١٠

« **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** »[٢٢] .
« **أفعيينا بالخلق الأول ، بل هم فى لبس من خلق جديد** »[٢٣] .
« **كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا ، إنا كنا فاعلين** »[٢٤] .
« **أيحسب الانسان ألن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوى بنانه** »[٢٥] .

« **وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم** »[٢٦] .

ثم هو يقرر بعد ذلك : أن البعث لابد أن يستتبع حسابا ، وأن الحساب لابد أن يستتبع ثوابا أو عقابا ، والا لكان الله عابثا بخلقه ، غير عادل فى ملكه ، فيقول :

« **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم** »[٢٧] .

ويقول : « **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار * أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار** »[٢٨] .

ويقول : « **أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون** »[٢٩] .

ويقول : « **وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء ، قليلا ما تتذكرون** »[٣٠] .

ويقول : « **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون** »[٣١] .

* * *

٢ ـ **وأما جانب الشريعة** : فقد سنّ لنا القرآن الكريم كثيرا من التشريعات والنظم التى نحتاج اليها فى عباداتنا ، ومعاملاتنا ، وصلاتنا فى مجتمعنا الإسلامى ، وعلاقاتنا بغيرنا من الدول فى السلم والحرب :

ففى العبادات : شرع الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج . . وغير ذلك من الطاعات والقرب التى يتقرب بها الانسان الى ربه ومولاه .

---

(٢٢) الروم : ٢٧
(٢٣) سورة ق : ١٥
(٢٤) الأنبياء : ١٠٤
(٢٥) القيامة : ٣ ، ٤
(٢٦) يس : ٧٨ ، ٧٩
(٢٧) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦
(٢٨) سورة ص : ٢٧ ، ٢٨
(٢٩) القلم : ٣٥ ، ٣٦
(٣٠) غافر : ٥٨
(٣١) الجاثية : ٢١

وفى **المعاملات** : بين الحلال والحرام ، فأحلّ البيع وحرّم الربا ، وحرّم أكل أموال الناس بالباطل فقال : « **وأحل الله البيع وحرم الربا** »[٣٢] .

وقال : « **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون** »[٣٣] .

وقال : « **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون** »[٣٤] .

وقال : « **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن** »[٣٥] .

وقال : « **ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا** »[٣٦] .

ووضع لنا القرآن الكريم أسس الاستيثاق فيما يجرى بيننا من معاملات مالية فقال فى الدين :

« **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه** » . . الى أن قال : « **واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء** »[٣٧] .

وقال فى البيع : « **وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد** »[٣٨] .

وقال فى الاستيثاق بالرهن : « **وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة** »[٣٩] .

وقال فى الوصية : « **يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم . .** »[٤٠] .

وقال لأوصياء اليتامى : « . . . **فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا** »[٤١] .

ووضع القرآن الكريم أحكام الزواج ، والطلاق ، وما يتعلق بهذا وذاك من مهر ، ونفقة ، وعدة ، وحضانة ، ورضاع . .

وأرسى القرآن قواعد الأمن والطمأنينة فى المجتمع الاسلامى بما شرعه من

---

(٣٢) البقرة : ٢٧٥
(٣٣) آل عمران : ١٣٠
(٣٤) البقرة : ١٨٨
(٣٥) الانعام : ١٥٢
(٣٦) النساء : ١٠
(٣٧) البقرة : ٢٨٢
(٣٨) البقرة : ٢٨٢
(٣٩) البقرة : ٢٨٣
(٤٠) المائدة : ١٠٦
(٤١) النساء : ٦

الحدود والعقوبات على بعض الجرائم التى لا تخلو منها المجتمعات البشرية :

فقرر عقوبة القصاص فى القتل العمد بقوله :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . . »[٤٢] .

وقرر عقوبة القتل الخطأ بقوله :

« . . . ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدّقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما »[٤٣] .

ووضع عقوبة لقطاع الطرق بقوله :

« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض . . . »[٤٤] .

ووضع عقوبة للسارق بقوله :

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله »[٤٥] .

وشرع من العقوبات ما يصون حرمة الأعراض ويزجر عن استباحتها وانتهاكها ، فقال فى عقوبة الزانى غير المحصن من الرجال والنساء :

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين »[٤٦] .

وقال فى عقوبة قذف العفيفات بالزنا :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون »[٤٧] .

وفى محيط المجتمع الاسلامى يعمل القرآن الكريم على تقوية ما بين المسلمين من وحدة وترابط وازالة ما عساه يقع بينهم من عوامل التفكك

(٤٢) البقرة : ١٧٨
(٤٣) النساء : ٩٢
(٤٤) المائدة : ٣٣
(٤٥) المائدة : ٣٨
(٤٦) النور : ٢
(٤٧) النور : ٤

obeikandi.com

والتصدع ، فيشرع لهم من الأحكام ما يجتث جذور التنازع والتناحر فيما بينهم فيقول فى جمع الكلمة ووحدة الصف :

« **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** »(٤٨) .

ويقول فى القضاء على الفتن والشقاق الذى يمزق هذه الوحدة :

« **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** »(٤٩) .

وفى علاج المشاكل الأسرية يشرع القرآن كثيرا من الأحكام التى تزيل أسباب الخلاف وتجعل الحياة الأسرية تمشى فى طريقها الصحيح الذى يجنبها العثرات والمكدرات ، وأبرز مثال نسوقه من هذه التشريعات الحكيمة قوله تعالى :

« **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، ان الله كان عليا كبيرا * وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا** »(٥٠) .

وفى علاقة المسلمين بغيرهم من الدول يضع القرآن الكريم قواعد المعاملة فى السلم والحرب :

ففى السلم : يدعو إلى مسالمة من يسالمنا بقوله :

« **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** »(٥١) .

وقوله : « . . . **فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا** »(٥٢) .

وفى الحرب : يدعو الى محاربة من يحاربنا بقوله :

« **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين** »(٥٣) .

---

(٤٨) آل عمران : ١٠٣

(٤٩) الحجرات : ٩ ، ١٠

(٥٠) النساء : ٣٤ ، ٣٥

(٥١) الأنفال : ٦١

(٥٢) النساء : ٩٠

(٥٣) البقرة : ١٩٠

ودعانا الى الاعداد للحرب ما دامت متوقعة بقوله :

« **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم** »[٥٤] .

وحضنا على الثبات عند لقاء الأعداء بقوله :

« **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** »[٥٥] .

وحرضنا على البلاء في القتال بقوله :

« **فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** »[٥٦] .

وقوله : « **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق** »[٥٧] .

وقوله : « **فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم** »[٥٨] .

ونهانا عن التولي يوم الزحف بقوله :

« **يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم ، وبئس المصير** »[٥٩] .

ونهانا عن الخور والوهن في طلب الأعداء بقوله :

« **ولا تهنوا في ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليما حكيما** »[٦٠] .

والقرآن يعطى الكافر المستأمن حق الأمان غير مروع على نفسه أو ماله فيقول :

« **وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه** »[٦١]

. ويقرر القرآن مصير أسرى الحرب بقوله :

« **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها** »[٦٢] .

---

(٥٤) الأنفال : ٦٠
(٥٥) الأنفال : ٤٥
(٥٦) الأنفال : ١٢
(٥٧) محمد : ٤
(٥٨) الأنفال : ٥٧
(٥٩) الأنفال : ١٥ ، ١٦
(٦٠) النساء : ١٠٤
(٦١) التوبة : ٦
(٦٢) محمد : ٤

ويضع القرآن أسس المعاهدات ويحتم وجوب الوفاء بها والوقوف عند بنودها ما دام العدو محافظا على ذلك من جانبه ولم يجدّ من الظروف ما يقتضى نقضها فيقول : « **وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم** »[٦٣] .

ويقول : « . . **إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ، ان الله يحب المتقين** »[٦٤] .

ويقول : « **واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين** »[٦٥] .

* * *

● **منهج القرآن فى بيان الأحكام :**

وللقرآن الكريم فى بيان الأحكام منهج فريد اقتضته ضرورة كونه عالميا خالدا ، ويتلخص هذا المنهج فى النقاط الآتية :

١ ـ أن بعض أحكامه جاء بصيغة قاطعة فى الدلالة على الحكم ، فلم يكن محل اجتهاد ولا خلاف بين الفقهاء وهذا ـ عادة ـ يكون فى أصول الأحكام : كوجوب الصلاة والزكاة . وحرمة القتل والزنا . وهذه الأحكام يجب اعتقادها ويلزم العمل بها ، ومن جحدها كان بجحودها خارجا عن الاسلام .

٢ ـ أن بعضا آخر من أحكامه جاء بصيغة غير قاطعة فى الدلالة على الحكم ، لاحتمالها أكثر من وجه ، فكانت محلا لاجتهاد المجتهدين ، ونتج عن ذلك اختلافهم فى الرأى ، وذلك يكون ـ عادة ـ فى فروع الأحكام : كمقدار ما يجب مسحه من الرأس فى الوضوء ، وعدد الرضعات التى يتحقق بها كون المرضع أُماً من الرضاع . وهذه الأحكام الاجتهادية التى قال بها الفقهاء لا يجب اعتقاد واحد منها بعينه ، كما لا يجب العمل به إلا على المجتهد الذى توصل اليه باجتهاده ، أما المقلد فله أن يختار من بين آراء المجتهدين ما شاء .

٣ ـ أن القرآن لم يتناول كل الأحكام التى يحتاجها الانسان فى حياته جملة وتفصيلا ، لأنه ليس من المعقول ولا من الحكمة أن ينص القرآن على أحكام كل ما يعرض للناس من أقضية فى ماضيهم ، وحاضرهم ، ومستقبل حياتهم الممتدة إلى يوم القيامة .

---

(٦٣) النحل : ٩١
(٦٤) التوبة : ٤
(٦٥) الأنفال : ٥٨

أما أنه ليس من المعقول : فذلك أمر بدهى ، إذ لا يتصور عقل أن يتسع كتاب لهذا كله .

وأما أنه ليس من الحكمة : فذلك لأن الحكمة تقضى أن تكون الشريعة التى جعلها الله خاتمة الشرائع وجعلها للناس كافة ، شريعة يكون فيها جانب المرونة محققا حتى تتسع لأنماط من الحكم مختلفة ، يقتضيها اختلاف طبائع المكلفين وما يحيط بهم من ملابسات وظروف على مدى تاريخ الاسلام الطويل .

وحسب القرآن الكريم فى تشريعه أن يقرر الأصول العامة ، ويتناول بعض الجزئيات الهامة ويقرن كل هذا بعلة التشريع وما يهدف اليه من مصلحة ، ثم يترك للمجتهدين بعد ذلك أن يستنبطوا من الأحكام ما يلائمهم بشرط ألا يخرج عن نطاق ما قرره من الأصول العامة وما نبه اليه من علة التشريع التى هى مناط الحكم .

٤ ـ أن القرآن لم يلتزم وحدة الموضوع فى بيان أحكامه ، لأنه ليس كتاب قانون يبوب لكل موضوع بابا ثم يسرد كل مسائله ، وانما هو كتاب هداية وارشاد : يسوق الآيات تلو الآيات فى جانب من جوانب الموعظة ، ويتوخى المناسبة الملائمة فيسوق فى ثنايا موعظته حكما شرعيا ، ويضفى عليه جواً من الترغيب أو الترهيب يوحى بوجوب الأخذ به ويحذر من مخالفته .

وفى جانب آخر من جوانب الموعظة يلقى بحكم آخر يضفى عليه من جو الترغيب أو الترهيب ما يحتم الأخذ به ويحذر من مخالفته .

...... وهكذا يلقى القرآن بأحكامه كلها فى أجواء مختلفة من الوعظ والهداية والإرشاد ، وفى كل مرة يحس السامع بأنه يسمع شيئا جديدا ، فيقبل عليه بشوق ولهفة دون أن يحس بسآمة أو ملل .

ثم ان القرآن الكريم نزل مفرقا ، وأحكامه نزلت مفرقة على حسب الحوادث وأسئلة السائلين وحاجات الناس ، ومن الأحكام ما هو منسوخ بأحكام أخرى ، فلو جمعت كل الأحكام : ناسخها ومنسوخها فى مكان واحد وتحت عنوان واحد ، لظهر القرآن بمظهر المتناقض فى بعض أحكامه . أما أن توضع آية متضمنة حكما فى موضع ما ولمناسبة ما ، ثم توضع آية أخرى ناسخة لها فى موضع آخر ولمناسبة أخرى ويعرف بطريق ما أن هذه ناسخة وتلك منسوخة ، فذلك يوحى بتدرج التشريع ، ويعطى القارىء المتأمل فكرة واضحة عن مراحله من غير أن يستشعر تناقضا بين أحكامه .

بقى سؤال يثار حول التشريع القرآنى وهو :

● **هل كل ما فى القرآن من تشريع يعد جديدا مبتكرا ؟**

وللجواب عن هذا السؤال نقول :

ان القرآن الكريم نزل للناس جميعا ، ونزوله - كما قلنا - كان لغرض الاعجاز أولا ، ثم ليكون مصدر هداية وارشاد بما احتواه من تشريع وتوجيهات مختلفة .

وبدهى أن أى تشريع يراد له أن يكون صالحا لتنظيم حياة أمة وعلاج مشاكلها فى حاضرها ومستقبل أمرها ، لابد أن تتوفر فيه عناصر أربعة :

١ - أن يكون ملائما للفطرة البشرية ملاءمة تامة حتى لا يصادمها ولا يعاندها فى أمر جبلت عليه ، ومن هنا حرم نكاح الأمهات والبنات فى كل الشرائع المعتبرة تحريماً باتاً ، ولو عرف أن تشريعا أباح ذلك لعدّ شذوذا وخروجا عن الانسانية الى الحيوانية .

٢ - أن يكون ملائما للقدرة الانسانية غير خارج عن طاقتها ، والا كان تعنتا وتعجيزا ينافى مفهوم التكليف الذى يهدف الى الامتثال والطاعة ، ومن هنا شرع التيسير فى كثير من الأحكام عند تحقق المشقة أو مظنتها ، كإباحة الفطر فى السفر ، والصلاة قاعدا لمن عجز عن أدائها من قيام .

٣ - أن يكون ملائما للسنن الاجتماعية فلا ينافرها ولا يعطلها ، والا كان ذلك خروجا عما تقتضيه طبيعة الجماعات فى ترابطها وتعاونها وتكاملها ، ومن هنا شرعت قوانين الولاء لولى الأمر ، وقوامة الزوج على زوجته ، وولاية الوالد على ولده القاصر .

٤ - أن يكون مراعيا للعرف وما اصطلح عليه الناس فى معاملاتهم ، ما لم يؤدّ ذلك الى مفسدة لفساده فى ذاته أو فساد ما يترتب عليه ، ومن هنا حرّم التبنى ، وحرّم الجمع بين الأختين فى الزواج ، وكلاهما كان متعارفا بين العرب قبل الاسلام ، فجاء الاسلام وحرّم الأول لفساده فى ذاته ، لأن الدعى لا يكون ابنا ، وحرم الثانى لفساد ما يترتب عليه من قطيعة الرحم التى تنشأ - عادة - بين الأختين ان كانتا تحت زوج واحد .

والقرآن الكريم راعى كل هذه العناصر المتقدمة فى تشريعه ، ونظر اليها جميعا بعين الاعتبار فيما تضمنه من أحكام كلية كانت أم جزئية ، وعلى هذا الأساس جاء تشريع القرآن الكريم على نمط يتمشى مع عمومه وعالميته . . نمط يأخذ من كل دين وعرف ما يلائم طبيعة الانسان ويدخل فى نطاق قدرته ،

ويساير تطوره الاجتماعى ، وما لا يلائم طبيعته ولا يدخل فى نطاق قدرته ، ولا يساير تطوره الاجتماعى يبطله ولا يقره ، ثم هو بعد ذلك يشرع ما يراه متمشيا مع هذا كله .

وليس من شك فى أن القرآن الكريم جاء وهناك تشريعات قائمة ، بعضها منبثق عن شرائع سماوية ، وبعضها الآخر منبثق عن أعراف خاصة لجماعات مختلفة .

وليس من شك ـ أيضا ـ فى أن القرآن الكريم وقف من كل هذه التشريعات موقف الناقد البصير : يقرّ منها ما يراه صالحا ، ويعدل منها ما يحتاج الى تعديل ، ويبطل منها ما يراه غير صالح ، ويشرع أحكاما أخرى لم تكن معروفة من قبل ، وهو فى كل هذا مشرع مستقل بنفسه ، وليس عالة على غيره من التشريعات أو الأعراف والعادات ، لأنه حين أقرّ ما أقرّ منها لم يقرّه على أنه مقلد لا رأى له ، وانما أقره لأنه جرى ويجرى على مقتضى الطبيعة الانسانية والسنن الاجتماعية ، وما كان لمشرع أبدا أن يحيد عما تقتضيه طبيعة الانسان وسنن الاجتماع والا لكان أحمق لا يعرف الحكمة ولا يدرك المصلحة .

* * *

● وخلاصة المقــال :

١ ـ أن ما فى القرآن من تشريع ليس كله جديدا مبتكرا .

٢ ـ وأن موقف التشريع القرآنى من الشرائع السابقة كان على النحو التالى :

(أ) أنه أقر بعض الأحكام وأبقاها معمولا بها فى الشريعة الاسلامية لملاءمتها وصلاحيتها كالقصاص والديات فى القتل وغيره من الجنايات على النفس .

(ب) أنه هذب وعدل بعضا آخر منها كالظهار الذى كان معروفا عند العرب : يقول الرجل لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى ، فتصبح فى عرفهم محرمة عليه أبدا ، فجاء القرآن وهم على ذلك ، فعدّل حكم الظهار ، فمن ظاهر من زوجته لا يعتبره القرآن مطلقاً ولا محرما لها على التأبيد ، بل اعتبره عابثا بالحياة الزوجية ، وجزاءه على ذلك : أنه لا يحل له قربانها والاستمتاع بها حتى يكفر عن خطيئته بعتق رقبة ، فان لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فان لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ، وفى ذلك يقول الله تعالى معاتبا ومعاقبا :

« الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من

قبل أن يتماسا . ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير * **فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين** مسكينا . **ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب** أليم »[٦٦] .

(جـ) أنه ألغى بعضاً ثالثاً منها : كالتبنى الذى كان معروفا فى الجاهلية وصدر الاسلام :

كان الرجل يتبنى ولد غيره وهو يعرف ذلك فينسبه الى نفسه وتجرى عليه أحكام الابن الصلبى : من التوارث بينهما ، وعدم جواز نكاح أحدهما زوجة الأخر اذا طلقها أو مات عنها ، فجاء القرآن فأبطل التبنى وما كان يترتب عليه .

فقال فى بيان انتساب الأدعياء المتبنين :

« . . . **وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل * ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم** »[٦٧] .

وقال فى ابطال التوارث بالتبنى :

« **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا** »[٦٨]

وقال فى اباحة زواج المتبنى بزوجة من تبناه بعد فراقه لها :

« **فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا** »[٦٩] . . يريد زينب بنت جحش وكان قد تزوجها زيد بن حارثه ثم طلقها ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد تبنى زيدا حتى كان يدعى زيد بن محمد ، فأمره الله بزواجها من بعده فكان ذلك هدما لعرف جرى عليه العرب فى الجاهلية .

(د) وقد يقر القرآن بعض ما كان شائعا من أحكام لنوع من المصلحة فيه ، ولكنه يحيط هذا الحكم الذى أقره بكثير من الضمانات حتى لا ينحرف به أحد عن حكمة التشريع .

ثم هو لا يكتفى بهذه الضمانات ، فينشئ من التشريعات ما يكاد يلغى هذا

---

(٦٦) المجادلة : ٢ ـ ٤
(٦٧) الأحزاب : ٤ ، ٥
(٦٨) الأحزاب . ٦
(٦٩) الأحزاب : ٣٧

الحكم أو يوحى بعدم الرغبة فيه ، وذلك كالرق فقد كان شائعا بين العرب فجاء القرآن وأقر الاسترقاق فى الحرب لا على أنه إهدار لآدمية المسترق وحطم لمعانى الانسانية فيه ، وإنما أعطاه كل حقوقه كإنسان ، واعتبر الاسترقاق إدخالا له فى مدرسة الاسلام ، لعل قلبه يتفتح على ما فيه من الحق والهدى فينضوى تحت لوائه ، وفتح له مع ذلك أبوابا كثيرة يخرج منها الى الحرية التامة :

فمن ذلك : أنه جعل تحرير الرقاب المسترقة من أفضل القرب وأحبها الى الله .

ومن تخلى عن أنانيته وطوّعت له نفسه عتق عبده عن سماحة نفس فقد تخطى العقبة وسلك طريقه الى الجنة .(٧٠)

ومن كان مسترقا يسعى للحصول على حريته ، فله فى مال الزكاة نصيب يأخذه ليشترى به حريته من سيده ان كان قد شح عليه بها .

ومن حلف يمينا ثم حنث فيها فكفارته اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو **تحرير رقبة** .(٧١) ومن قتل مؤمنا خطأ فكفارته **تحرير رقبة مؤمنة** ودية مسلمة الى أهله (٧٢) .

ومن ظاهر من زوجته ثم أراد أن يعود لها فكفارته **عتق رقبة**(٧٣) .

ومن أفطر متعمدا فى نهار رمضان فكفارته **عتق رقبة** أيضا(٧٤) .

ومن لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه .(٧٥)

ومن يتأمل الآيات القرآنية التى وردت فى الكفارات يخرج بحقيقتين هامتين :

الحقيقة الأولى : أن العتق هو الأصل فى الكفارة ، وأنه لا تخيير بين العتق وغيره من المكفرات إلا فى كفارة اليمين .

الحقيقة الثانية : أن العتق لا يعدل عنه الى البديل وهو الصوم إلا اذا لم يجد المكفر رقبة يعتقها .

معنى هذا : أن الاسلام يتشوف الى الحرية ويراها أحب الى الله وأرضى من الصوم وغيره من العبادات والقرب .

---

(٧٠) انظر الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ من سورة البلد

(٧١) انظر الاية ٨٩ من سورة المائده .

(٧٢) انظر الآية ٩٢ من سورة النساء

(٧٣) انظر الآية ٣ من سورة المجادلة .

(٧٤) على خلاف بين الفقهاء فى ذلك

(٧٥) هذا نص حديث رواه الامام أحمد والامام مسلم وغيرهما وفى معناه عدة أحاديث مروية فى الصحيح .

ثم إن الاسلام يملك الرقيق نفسه ويعطيه حريته لأدنى مناسبة ، فاذا ما لاح للمسترق شعاع أمل فى الحرية من خلال نافذة ضيقة ، فتح الله له الباب على مصراعيه لينطلق منه الى الحرية الكاملة ، كالأمة يستولدها سيدها فلا يحل له أن يخرجها عن ملكه ببيع أو هبة أو نحوهما ، فاذا مات فهى حرة .

والعبد يكون بين شريكين فيعتق أحدهما نصيبه فيعتق العبد كله ، ويضمن المعتق الأول نصيب شريكه ان كان له مال ، فان لم يكن له مال قوّم نصيب من لم يعتق وسعى العبد فى تحصيله له من غير عنت ولا مشقة .

. . . وهكذا يقر الاسلام أمرا كان شائعا بين الناس ، ولكنه يحيطه بكل الضمانات التى تجعله لا يخرج عن نطاق الحكمة والمصلحة . . ثم هو بعد يلغيه بضروب من الجزاءات والعبادات والقرب الى الله .

* * *

٣ ـ وأما جانب الأخلاق : فقد وجهنا القرآن الكريم الى نواح أخلاقية متعددة ، ودعانا الى الأخذ بها حتى نسعد فى حياتنا الدنيا وفى الآخرة ، وحذرنا بأساليب شتى من الخروج عنها حتى لا نضل ولا نشقى ، ونبهنا الى الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة . . نبهنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما هو عليه من حسن الخلق وكريم الخصال حتى نقتدى به فقال مثنيا عليه : « **وإنك لعلى خلق عظيم** »(٧٦) .

وبين سر التفاف المسلمين من حوله واجتماع قلوبهم على محبته فقال :

« **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** »(٧٧) .

واذا نحن تتبعنا القرآن الكريم وتقصينا ما فيه من توجيهات أخلاقية لخرجنا بعديد من الآيات التى تحوى جماع الفضائل كلها ، والتى لو تمسك بها المسلم لكان فى القمة : من سمو الروح ، وصفاء النفس ، وحسن السريرة ، وطيب المعشر ، والتى لو سادت فى مجتمع لكان مجتمعاً مثاليا فاضلا ، يقوم على الخير ، والحب ، والمودة ، والرحمة ، والطهر ، والنقاء . .

ولا نريد أن نستعرض كل ما فى القرآن الكريم من الآيات الأخلاقية الموجهة ، فذلك أمر يطول . . ولكن نكتفى ببعضها :

ففى الدعوة الى الاحسان فى معاملة الأقربين وغيرهم يقول :

« **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا وبذى القربى**

---

(٧٦) القلم : ٤

(٧٧) آل عمران : ١٥٩

obeikandi.com

واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا »[٧٨] .

ويقول : « وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض »[٧٩] .

وفى مقابلة السيئة بالحسنة يقول :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »[٨٠] .

وفى العفو عن المسىء يقول :

« .. فمن عفا وأصلح فأجره على الله »[٨١] .

ويقول لنبيه محمد ﷺ : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم » ـ يعنى اليهود ـ « إلا قليلا منهم ، فاعف عنهم واصفح ، إن الله يحب المحسنين »[٨٢] .

ويقول : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين »[٨٣] .

وفى الحث على الصدق يقول :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين »[٨٤] .

وفى النجوى يقول :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون »[٨٥] .

ويقول : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما »[٨٦] .

وفى الحث على الأمانة يقول :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها »[٨٧] .

ويمدح المؤمنين الأمناء ويسجل لهم الفوز والفلاح بقوله :

---

(٧٨) النساء : ٣٦
(٧٩) القصص : ٧٧
(٨٠) فصلت : ٣٤
(٨١) الشورى : ٤٠
(٨٢) المائدة : ١٣
(٨٣) آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤
(٨٤) التوبة : ١١٩
(٨٥) المجادلة : ٩
(٨٦) النساء : ١١٤
(٨٧) النساء : ٥٨

« **قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون** » . . الى أن يقول : « **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** »(٨٨) .

ويحذر من الخيانة فيقول :

« **يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** »(٨٩) .

ويقول : « **إن الله لا يحب من كان خوّاناً أثيماً** »(٩٠) .

وفى الحث على العدل يقول :

« **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** . . »(٩١) .

ويحذر من أن تكون القرابة أو العداوة سببا لعدم العدل فى القول أو الحكم فيقول : « **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** »(٩٢) .

ويقول : « **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** »(٩٣) .

ويقول : « **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون** »(٩٤)

ويدعو الى التواضع وعدم التكبر والتعالى على الغير فيقول :

« **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** » . . إلى أن يقول : « **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما** »(٩٥) .

ويقول : « **ولا تمش فى الأرض مرحا ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا** »(٩٦) .

ويقول : « **ولا تُصَعِّر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً ، إن الله**

---

(٨٨) المؤمنون : ١ ـ ١١
(٨٩) الأنفال : ٢٧
(٩٠) النساء : ١٠٧
(٩١) النحل : ٩٠
(٩٢) الأنعام : ١٥٢
(٩٣) النساء : ١٣٥
(٩٤) المائدة : ٨
(٩٥) الفرقان : ٦٣ ـ ٧٥
(٩٦) الاسراء : ٣٧

لا يحب كل مختال فخور * واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير »(٩٧) .

وينهى عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »(٩٨) .

وينهى عن ظن السوء ، والتجسس ، والغيبة فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم »(٩٩) .

ويحذر من اشاعة الفاحشة فى المؤمنين فيقول :

« إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة »(١٠٠) .

ويرشدنا الى حرمة البيوت وآدابها فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون * فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم * ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون »(١٠١) .

ويقول : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم * وإذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته ، والله عليم حكيم »(١٠٢) .

---

(٩٧) لقمان : ١٨ ، ١٩

(٩٨) الحجرات : ١١

(٩٩) الحجرات : ١٢

(١٠٠) النور : ١٩

(١٠١) النور : ٢٧ - ٢٩

(١٠٢) النور : ٥٨ ، ٥٩

ويدعو الرجال الى غض أبصارهم وحفظ فروجهم عما حرّم الله فيقول :

« **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون** »(١٠٣) .

ويدعو النساء الى غض أبصارهن وحفظ فروجهن وعدم ابداء زينتهن للأجانب حتى لا يكنّ مثار فتنة فيقول :

« **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهنّ على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** »(١٠٤) .

ويقول : « **يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفورا رحيما** »(١٠٥) .

ويقول : « **يا نساء النبى لستنّ كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا * وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** »(١٠٦) . . وغير أمهات المؤمنين بذلك أولى .

ويقول فى أدب الضيف :

« **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ، والله لا يستحى من الحق** »(١٠٧) .

* * *

(١٠٣) النور : ٣٠

(١٠٤) النور : ٣١

(١٠٥) الأحزاب : ٥٩

(١٠٦) الأحزاب ٣٢ ، ٣٣

(١٠٧) الأحزاب : ٥٣

٤ ـ **وأما جانب الدعوة الى النظر فى ملكوت السموات والأرض** : فقد وجهنا القرآن الكريم الى ما بثه الله فى الكون من آثار قدرته ودلائل ألوهيته فقال :

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »(١٠٨) .

وقال : **«ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم »**(١٠٩) .

وقال : **« وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون »**(١١٠) .

وقال : **« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت »**(١١١) .

وقال : **« تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا * وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكورا »**(١١٢) .

وقال : **« ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا * ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا * وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا * وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا * لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا * ولقد صرفناه بينهم ليذّكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا »**(١١٣) .

وقال : **« ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار * يقلّب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار * والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى**

---

(١٠٨) البقرة : ١٦٤
(١٠٩) الروم : ٢٢
(١١٠) الذاريات ٢٠ ، ٢١
(١١١) الغاشية : ١٧ ـ ٢٠
(١١٢) الفرقان : ٦١ ، ٦٢
(١١٣) الفرقان : ٤٥ ـ ٥٠

على أربع . يخلق الله ما يشاء . إن الله على كل شيء قدير »[١١٤] .

وقال : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام * إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور »[١١٥] .

وقال : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون »[١١٦] .

وقال : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء »[١١٧] .

وقال : « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »[١١٨] .

.... وأخيرا يشير القرآن الكريم الى آيات أخرى لا يزال يكشف عنها العلم كانت وستكون الحجة البالغة لله على الناس فيقول :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »[١١٩] .

* * *

● **هدف القرآن من توجيهنا إلى آثار قدرة الله :**

والقرآن اذ يوجهنا الى هذه الآثار ويلفت أنظارنا اليها ، لا يريد منا أن ننظر اليها نظرة عابرة قاصرة ، وانما يريد منا النظرة الفاحصة المتأملة ، وهو يهدف من وراء ذلك الى أمرين هامين :

أولهما : أن نأخذ منها الدليل على وجود الله وقدرته ، وعلى أنه الاله الحق الذى يستحق العبادة دون غيره .

وثانيهما : أن ننقب عما حواه الكون من خيرات وكنوز ، وأن نكشف أسراره وكوامنه حتى ننتفع بكل ما فيه من خيرات مادية ، ونستفيد بكل ما نهتدى اليه من معارف وعلوم بعد الدراسة لظواهره ومشاهده دراسة البارع المدقق والعالم المحقق .

ولقد أدرك العلماء من غير المسلمين ما في الكون من مصادر الثروة ، وموارد

---

(١١٤) النور : ٤٣ ـ ٤٥
(١١٥) الشورى : ٣٢ ، ٣٣
(١١٦) يس : ٣٧ ـ ٤٠
(١١٧) الأعراف : ١٨٥
(١١٨) يوسف : ١٠٥
(١١٩) فصلت : ٥٣

القوة ، وينابيع المعرفة ، فأخذوا جادين فى استنباط كنوز الأرض واستغلال خيراتها ، وبحثوا محققين عن خواص بعض ظواهر الكون وعوالمه ، فاذا بهم بعد الجهد والعرق يصلون الى ما كانوا يرجون ، ويحققون لأممهم غنى لا يطاول ، ومجدا لا يسامى ، وقوة لا تقهر .

وغفل المسلمون عن آيات الله البينات ، وأغمضوا عيونهم وعقولهم عن التأمل والتدبر فيما تحويه من ذخائر وتوحى به من معارف ، فكان حالهم ما نرى .. تخلف عن ركب الحضارة ، وتسول فى موكب العلم !! . . .

* * *

● **القرآن يخاطب العقل والوجدان والعاطفة :**

والقرآن الكريم حين يدعو إلى العقيدة الحقة فى الله وفى كل ما جاء عنه ، وحين يدعو إلى التزام تشريع معين فى عباداتنا أو معاملاتنا أو نظمنا الاجتماعية ، وحين يدعو الى الخلق الكريم والأدب الحميد واتخاذ ذلك منهجا لنا فى سلوكنا الشخصى وسلوكنا مع الله ومع الناس . حين يدعو القرآن الى هذا كله ، لا يدعو اليه دعوة جافة خشنة ليس فيها إلا مجرد الأمر الصارم أو النهى العنيف ، وانما يدعو اليه دعوة الحكمة العاقلة ، فيورده بأسلوب الأمر أو النهى مقرونا بوسائل الاقناع بصدقه ، وصلاحيته ، وحسن عاقبته .

ووسائل الاقناع متعددة :

فتارة يكون الاقناع عن طريق العقل ، وتارة يكون عن طريق الوجدان ، وتارة ثالثة يكون عن طريق العاطفة .

ولقد سلك القرآن الكريم فى دعوته هذه الطرق الثلاثة :

خاطب العقل : لأن من الناس من لا يؤمن الا بالدليل العقلى ، ومن ذلك قوله تعالى : « **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض** »(١٢٠) .

وقوله : « **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** »(١٢١) .

وكلتا الآيتين دليل منطقى واضح يدركه من له إلمام بأساليب المناطقة فى استدلالهم ويدركه كل من له عقل يعى ولو لم يكن على علم بأسلوب المناطقة .

---

(١٢٠) المؤمنون : ٩١

(١٢١) الأنبياء : ٢٢

ثم هناك آيات الله فى السموات والأرض وفى أنفسنا ، وكلها براهين عقلية تشهد بوجود الله وربوبيته ، والقرآن الكريم ـ فى أكثر من آية ـ يلفت أنظارنا إلى هذه الدلائل والبراهين حتى تقوم الحجة لله على الناس .

وخاطب القرآن الوجدان : لأن من الناس من لا يحفزه الى الانقياد والطاعة إلا ما يحرك وجدانه ، ويثير فيه جانب الرغبة أو الرهبة ، فاذا ما أمر بمعروف وقرن الأمر بالترغيب رغبت نفسه فى الامتثال أملا فى الثواب ، واذا ما نهى عن منكر وقرن النهى بالترهيب كف نفسه عنه رهبة من الوقوع تحت طائلة العقاب .

وكثيرا ما نجد فى القرآن الكريم آيات تحرك فى الوجدان نوازع الخير بما تضمنته من وعد بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة ، وآيات أخرى تنيم فى الوجدان نوازع الشر بما تضمنته من وعيد بشقاء الدنيا وعذاب الآخرة .

فمن الآيات التى تحرك فى الوجدان نوازع الخير وتبعث على امتثال الأوامر الإلهية : قوله تعالى : **« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن هم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »**(١٢٢) .

وقوله : **« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »**(١٢٣) .

وقوله : **« ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم »**(١٢٤) .

ومن الآيات التى تنيم فى الوجدان نوازع الشر وتبعث فى النفس الخوف من الوقوع فيما نهى الله عنه :

قوله تعالى : **« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون »**(١٢٥) .

وقوله : **« وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها**

---

(١٢٢) النور : ٥٥
(١٢٣) النحل : ٩٧
(١٢٤) النساء ١٣
(١٢٥) النحل : ١١٢

أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون * ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون »(١٢٦) .

وخاطب القرآن العاطفة : لأن من الناس من لا يستجيب لدعوة الخير إلا اذا خوطب بما يهز عاطفته ويوقظ فى نفسه كوامن الحب والشفقة والرحمة.

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو الى عمل البر والخير ، وأخرى تنهى عن ارتكاب بعض ما لا يليق بالانسان ، وهذه وتلك تأتى مقرونة بما ينبه العواطف الانسانية ويثيرها حتى تكون المحرك الدافع لفعل الخيرات والمبرات ، والمثبط المعوق عن ارتكاب الحماقات والموبقات .

فمن الآيات المقترنة بما يحرك العواطف الدافعة الى فعل الخيرات والمبرات :

قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »(١٢٧) .

وقوله : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم »(١٢٨) .

ومن الآيات المقترنة بما يحرك العواطف المعوقة عن ارتكاب الحماقات والموبقات :

قوله تعالى : « . . . ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا »(١٢٩) .

وقوله : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا »(١٣٠) .

وقوله : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا »(١٣١) .

وقوله : « ولا تلمزوا أنفسكم »(١٣٢) .

وقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم »(١٣٣) .

---

(١٢٦) السجدة : ٢٠ ، ٢١
(١٢٧) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤
(١٢٨) الحجرات : ١٠
(١٢٩) الحجرات : ١٢
(١٣٠) النساء : ٢٠ ، ٢١
(١٣١) النساء : ٩
(١٣٢) الحجرات : ١١
(١٣٣) النساء : ٢٩

يريد : أن المؤمن وأخاه كنفس واحدة فمن عاب أخاه فكأنما عاب نفسه ، ومن قتل أخاه فكأنما قتل نفسه .

..... وهكذا يخاطب القرآن الكريم العقل والوجدان والعاطفة حتى يصل الى القلوب بتعاليمه ومفاهيمه من كل هذه النوافذ ، وتلك رحمة من الله بعباده الذين شرحوا صدورهم للقرآن ولم يوصدوا دونه هذه المنافذ ويضعوا عليها أقفالا من المكابرة والعناد .

* * *

obeikandl.com

إعجاز القرآن الكريم

● معنى الإعجاز :

تطلق كلمة الإعجاز فى اللغة ويراد بها اثبات العجز وإظهاره .
وإعجاز القرآن الكريم معناه : إثبات عجز العرب وغيرهم عن الإتيان بمثله ، فيظهر بذلك صدق النبى ﷺ فى دعواه الرسالة ، وأن القرآن ليس من كلامه ، ولا هو فى مقدور أحد ، وإنما هو كلام الله عز وجل .

* * *

● القرآن معجزة النبى الكبرى :

والقرآن معجزة النبى الكبرى ، وهو يتميز عن سائر معجزات الأنبياء بأمور :

١ ـ أنه يحتوى على أصول الدعوة المحمدية وما يكتنفها من هداية وإرشاد ، وذلك أبلغ فى الدلالة على النبوة ، لأن ما احتواه من ذلك لا يمكن أن يكتسب بالتعلم وإنما هو بوحى من الله ، ومن هنا كان القرآن كافيا ومغنيا عن كل ما طلبه المتعنتون من معجزات تحدياً له عليه الصلاة والسلام ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « **أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم** »(١) .

٢ ـ أن القرآن معجزة العقل ، لأنه يخاطب العقل دائما ولا يجمد عند الحسّ كمعجزات الأنبياء السابقين ، ولقد نوّه رسول الله ـ ﷺ ـ بذلك فى حديث له فقال : « ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة . »(٢) .

٣ ـ أن القرآن الكريم معجزة خالدة باقية على مدى الدهر ضرورة أنه معجزة الدين الخالد ، فهو شاهد أبداً بصدق محمد ﷺ ، أما معجزات الأنبياء السابقين ، فقد كانت تنتهى بانتهاء وقت وقوعها ثم لا يبقى لها أثر بعد ذلك إلا فى نفس من شهدها .

* * *

---

(١) العنكبوت : ٥١

(٢) رواه أحمد وغيره عن أبى هريرة

● **القرآن بين تكذيب العرب له وتحديهم به :**

ولقد أيّد الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ـ ﷺ ـ بمعجزة القرآن من أول يوم بعثه رسولاً للعالمين ، ولكن قومه كذبوه ، وزعموا أن ما يتلوه عليهم من القرآن ليس من عند الله ، وقالوا عنه : « **أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً** »[٣] .

فأوحى الله إلى نبيه بقوله : « **قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض** »[٤] .

وقوله : « **وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذن لارتاب المبطلون** »[٥] .

وقالوا : « **إنما يعلمه بشر** »[٦] فرد الله عليهم بقوله : « **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** »[٧] .

وقالوا : « **شاعر نتربص به ريب المنون** »[٨] . فرد عليهم بقوله : « **وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين** »[٩] .

قالوا عنه هذا وأكثر ، ورد الله عليهم بما ذكرنا وأكثر مما يبطل زعمهم ، ولكنهم تمادوا فى غيهم ، واستمروا فى تكذيبهم وعنادهم ، فلم يكن بعد ذلك إلا أن يلقمهم حجراً يسّد أفواههم حتى لا ينسبوا بفرية ، ويدفع عنادهم حتى لا يقوى على أن يتصدى للحق أو يعترض طريقه .

لم يبق إلا أن يتحداهم الله ، ويتحدى الإنس والجن جميعا أن يأتوا بمثل القرآن ما دام القرآن فى زعمهم من صنع البشر ـ محمد أو غيره ـ وليس من عند الله عز وجل .

ولقد جرى ذلك التحدى على تدرج ملحوظ :

تحداهم أولاً أن يأتوا بمثل القرآن فقال :

« **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** »[١٠] فما كان منهم إلا العجز التام .

---

(٣) الفرقان : ٥
(٤) الفرقان : ٦
(٥) العنكبوت : ٤٨
(٦) النحل : ١٠٣
(٧) النحل : ١٠٣
(٨) الطور : ٣٠
(٩) يس : ٦٩
(١٠) الاسراء : ٨٨

ثم تنزل معهم فى التحدى ، فقال آمراً لنبيه ﷺ وقد رموه بالافتراء على الله فى نسبة القرآن إليه : « **قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** »(١١) . فعجزوا كل العجز عن ذلك أيضا .

ثم نزل إلى أدنى من ذلك فقال : « **قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** »(١٢) .

وقال : « **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين** »(١٣) فما استطاعوا معارضة ذلك القدر القليل .

ثم نزل إلى أدنى درجات التحدى فقال : « **فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** »(١٤) فعجزوا عن أن يأتوا بحديث مماثل له . . أى حديث كان طال أم قصر ، ولزمهم العجز عن معارضته هم ومن وراءهم إلى يوم القيامة .

ولم يكن عجزهم هذا ناشئاً عن كون القرآن غريبا عليهم فى لغته ، بل كان من جنس كلامهم وبلغتهم التى يتكلمون بها ، ولم يكن عدم معارضتهم له ناتجا عن عدم اهتمامهم بالمعارضة أو عدم اكتراثهم بالتحدى ، فقد أثار القرآن اهتمامهم بالمعارضة ، وبعث فيهم الرغبة الملحة فى قبول التحدى والعمل على حطمه والخروج من المأزق الذى وضعهم فيه ، بما كان منه من تسفيه أحلامهم بنحو قوله عنهم : « **إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل** »(١٥) .

وتحقير آلهتهم بنحو قوله : « **إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب** »(١٦)

ومع ذلك الاستفزاز فقد وقفوا عاجزين أمام هذا التحدى ، ولم نجد لهم معارضة يمكن أن تجارى أو تدانى القرآن فى أسلوبه ونظمه ، أو فى أى جانب من جوانب إعجازه التى سنذكرها ، وما ترويه لنا بعض كتب الأدب أو غيرها

---

(١١) هود : ١٣
(١٢) يونس : ٣٨
(١٣) البقرة : ٢٣ ، ٢٤
(١٤) الطور : ٣٤
(١٥) الفرقان : ٤٤
(١٦) الحج : ٧٣

من محاولات لمعارضة القرآن لم تخرج - فى الواقع - عن كونها محاولات سخيفة ، ليس فيها من براعة النظم ولا من دقة المعنى شىء مطلقا ، وإنما هى هذيان كهذيان المحموم ، عار من كل شىء إلا من ركاكة النظم وفساد المعنى .

***

● جوانب الإعجاز فى القرآن الكريم :

وجوانب الإعجاز فى القرآن الكريم متعددة وهى :

١ - فصاحة كلماته .

٢ - براعة نظمه ، وجزالة أسلوبه .

٣ - بلاغته فى الدلالة على معانيه .

وهذه الثلاثة يمكن أن نجمعها تحت عنوان واحد هو « **الإعجاز البيانى** » .

ولا شك أن القرآن الكريم قد تميز عن كل ما عداه من كلام إلهى وغير إلهى بأسلوب فريد ، بلغ الغاية فى جزالته وبلاغته ، ولو جئنا بأبلغ عبارة نطق بها العرب ووضعناها بجانب عبارة فى موضوعها جاء بها القرآن الكريم ، لوجدنا بين العبارتين فرقا بلاغيا كبيراً ، فأبلغ عباراتهم فى القصاص « القتل أنفى للقتل » وعبارة القرآن فى هذا الباب « **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب** »[١٧] وقد تناول علماء البلاغة كلتا العبارتين بالتحليل البلاغى ، وبينوا - بما لا يقبل الشك - أن عبارة القرآن فوق العبارة المأثورة عن العرب بمراتب كثيرة .

وبلغاء العرب - بسليقتهم - يدركون هذا التفوق البيانى للقرآن الكريم حتى إن أحدهم . وهو الوليد بن المغيرة - يسمع القرآن من محمد ﷺ ، فيبهره أسلوبه وبلاغته ، ويعجب به أيما إعجاب ويشيع ذلك عنه ، فيأتى إليه أبو جهل ويطلب منه أن يقول فى القرآن قولاً يبلغ قومه أنه منكر له ، فيجيبه الوليد بقولته المشهورة : « وماذا أقول ؟ فو الله ما فيكم أحد أعلم بالشعر : لا برجزه ، ولا بقصيده منى ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو وما يُعلى ، وإنه ليحطم ما تحته » .

ولا نطيل بالكلام عن بلاغة القرآن ، فذلك موضوع واسع ، تولاه بالبحث والبيان كثير من العلماء ، ولهم فى ذلك مؤلفات كثيرة ومشهورة .

---

(١٧) البقرة : ١٧٩

٤ ـ اشتماله على حوادث وقعت فى الأزمان الغابرة ، ولم يكن للنبى ﷺ علم بها ، لا عن معلم ، ولا عن كتاب ، ولا عن أى طريق أخرى غير القرآن ، كقصة موسى وغيره من الأنبياء ، وفى هذا يقول الله سبحانه مخاطبا نبيه محمداً ﷺ ـ بعد ما قص عليه من خبر موسى وقومه ـ « **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر، وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين * وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون** »(١٨) .

٥ ـ اشتماله على أمور غيبية ، وحوادث مستقبلة ، أخبر بها وتحقق وقوعها فيما بعد ، كقوله تعالى : « **آلم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم** »(١٩)

٦ ـ اشتماله على التشريعات الروحية ، والأدبية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والمالية، التى كان ـ ولا زال ـ لها أكبر الأثر فى إصلاح المجتمع الإنسانى واستقراره ، لبلوغها مرتبة الكمال التشريعى ، ولخلوها من كل الثغرات التى تشتمل عليها القوانين الوضعية ، وقد ذكرنا ـ عند الكلام عن جوانب الهداية القرآنية كثيراً من التشريعات التى جاء بها القرآن ، والتى نظمت علاقة الإنسان بربه ، وبأخيه الإنسان .

٧ ـ اشتماله على كثير من العلوم والمعارف التى كشف عنها العلم فيما بعد ، ولا زال يكشف عنها إلى اليوم ، وسوف يظل يكشف عنها على مدى الدهر ، وإلى الأبد .

ولا نريد أن نستقصى كل ما حواه القرآن تصريحاً ، أو تلميحاً ، من علوم كونية ، وإنما نكتفى بثلاثة أمثلة نذكرها كشواهد على الإعجاز العلمى للقرآن الكريم :

المثال الأول : قوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة الأنبياء « **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما** » فقد فسرها عبد الله بن عباس على ضوء ما وصل اليه العلم فى زمانه تفسيراً تحتمله الآية فقال :

---

(١٨) القصص : ٤٤ ـ ٤٦ (١٩) الروم : ١ ـ ٥

obeikandi.com

كانت السماء رتقاء لا تمطر ، والأرض رتقاء لا تنبت ، ففتق هذه بالنبات ، وتلك بالمطر »

وفسرها علماء العصر الحديث على ضوء ما توصلوا اليه من العلم فقالوا : « قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءاً من الشمس ، وأن حادثا كونيا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها ، وأن هذه القطعة ـ بعد أن مرت عليها أطوار ـ تكسرت وصارت قطعاً ، كل قطعة منها صارت سياراً من السيارات ، وهذه السيارات طافت حول الشمس ، وبقيت فى قبضة جذبتها ، والأرض واحدة من هذه السيارات ، فهى بنت الشمس ، والشمس هى المركز لكل هذه السيارات »[٢٠] .

ولا نكاد نجد تعارضا بين الفهمين ، والآية تحتملهما وتتسع لهما ، وذلك ـ بلا شك ـ وجه من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم .

المثال الثانى : قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة يونس « **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً** »وقوله فى الآية (٦١) من سورة الفرقان « **تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً** »أليس فى هاتين الآيتين دلالة صريحة على ما توصل اليه العلم الحديث من أن الشمس كوكب مضىء ، وأنها كالسراج نوره من ذاته ، وأن القمر كوكب معتم نوره مستمد من غيره ؟ وهل يستطيع محمد ﷺ وهو النبى الأمى ، والعلم بالأكوان والأفلاك لا زال فى مدرج الطفولة ـ أن يقرر هذه الحقيقة من تلقاء نفسه ؟ كلا ، إنه من علم الله العليم الخبير . . أودعه فى القرآن فكان من وجوه إعجازه .

المثال الثالث : قوله تعالى فى الآيتين (٣ ، ٤) من سورة القيامة « **أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوى بنانه** »يقرأ العربى هذه الآية فى عصر نزول القرآن فيفهم منها أنها تدل على أن الله قادر على أن يعيد الإنسان عند البعث بشراً سوياً ، بكل أعضاء جسمه ، وعلى صورتها الأولى ، حتى ما دق خلقه من هذه الأعضاء وهو البنان ، ونقرؤها اليوم على ضوء العلم فنراها تنطوى على ما توصل إليه العلماء من أن (بصمات) أنامل اليد لا تتشابه عند بنى الإنسان ، فكل فرد له بصمات يتميز بها عن غيره ، ويمكن أن تكشف عن شخصيته . وإعادة هذه البصمات المختلفة المتمايزة عند الحياة الثانية على ما كانت عليه لكل فرد عند الحياة الأولى شىء لا يعظم على

---

(٢٠) انظر التفسير والمفسرون جـ ٣ ص ٢٧٠

obeikandi.com

الله سبحانه ، ولا شك أن انطواء الآية على هذه الحقيقة العلمية التى لم يكشف عنها العلم إلا حديثا ضرب من ضروب الإعجاز العلمى للقرآن الكريم .

٨ ـ سلامة القرآن من الاختلاف والتناقض ، ولا شك أن هذا جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم ، فالقرآن كتاب حافل بالقضايا العقلية ، والتشريعات الفقهية ، والحقائق العلمية ، والتاريخ ، والقصص ، والأمثال ، والأخبار عن وقائع ماضية وحاضرة ومستقبلة ، وهو فى ذلك كله صادق لا يرقى إليه كذب ، مصيب لا يعتريه خطأ ، واضح لا يشوبه لبس ، متناسق لا يعترض نسقه تناقض أو تعارض ، مؤتلف غير مختلف .

ولا يكاد يتم ذلك بحال من الأحوال لكتاب جمع الكثير من ألوان المعرفة وضروب الهداية والإرشاد ، وضم الكثير من القصص والأخبار ، ووزعها وكررها فى مواضع شتى على نحو من الإيجاز تارة ومن الإطناب أخرى ، مع تفاوت وتغاير وتفنن فى التعبير يجعل القارىء مشدوداً دائماً إلى قراءته وسماعه دون سآمة أو ملل أو إحساس بنبوة . . لا يكاد يتم ذلك بحال من الأحوال إلا للقرآن ، لأنه كلام الله الذى لا يضل ولا ينسى ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً** »(٢١)

هذه هى جوانب الإعجاز للقرآن الكريم ، أو هى أهم جوانبه .

ولقد نرى بعض العلماء يذهبون إلى أن إعجاز القرآن لا يرجع إلى أى من هذه الوجوه المذكورة ، وإنما يرجع إلى الصرفة ، ومعنى ذلك ـ على حد قولهم ـ أن القرآن الكريم كان فى متناول العرب أن يأتوا بمثله ، ولكن الله صرفهم عن معارضته فصاروا بذلك عاجزين عنها . وهذا قول باطل لأنه يلزم عليه :

١ ـ أن يكون القرآن فى مستوى كلام البشر ، وهذا مخالف للواقع ، وأرباب البلاغة من المشركين أنفسهم قد اعترفوا بأنه فى أعلا درجات البلاغة التى لا يتطاول إليها أحد منهم ، وفى وصف الوليد بن المغيرة للقرآن ـ وقد ذكرناه آنفاً ـ ما يشهد بذلك ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

٢ ـ أن يكون المعجز فى الحقيقة هو الله وليس القرآن ، مع أن آيات التحدى تكاد تكون صريحة فى أن الإعجاز راجع إلى القرآن ذاته ، وعلى ذلك انعقد الإجماع .

---

(٢١) النساء : ٨٢

٣ ـ أن الإنس والجن ـ بصرفهم عن المعارضة بحيث أصبحوا عاجزين عنها ـ صاروا بمنزلة الموتى ، وحينئذ لا يكون للتحدى معنى ولا فائدة .

ولقد نرى ـ أيضا ـ بعض العلماء يقصرون إعجاز القرآن على جانب واحد من جوانب الإعجاز المذكورة ، وهذا ـ إذا أخذ على ظاهره ـ خطأ بيّن ، إذ أن كل ما ذكرناه من جوانب الإعجاز متحقق فى القرآن الكريم .

والظن بهؤلاء الذين قصروا إعجاز القرآن على جانب واحد من الجوانب التى ذكرناها : أنهم لم يقصدوا بذلك أن القرآن ليس فيه من جوانب الإعجاز إلا هذا الجانب فقط ، وإنما قصدهم : أن هذا الجانب الذى اقتصروا عليه يحقق الإعجاز للقرآن الكريم ، وهذا لا يمنع من وجود جوانب أخرى تحقق نفس الشيء ، وبانضمام بعضها إلى بعض يكون الإعجاز أتم وأقوى .

بقيت حقيقة يجب أن نعلمها ، وهى :

أن إعجاز القرآن من ناحية فصاحة كلماته ، وبراعة نظمه ، وجزالة أسلوبه،وبلاغته فى الدلالة على معانيه ، أمر متحقق فى كل سورة ، بل وفى كل آية تفيد فائدة تامة ، أما ما وراء ذلك من جوانب الإعجاز ، كاشتماله على أمور غيبية مستقبلة وقعت بعد كما أخبر عنها ، واشتماله على التشريعات الحكيمة ، وانطوائه على حقائق علمية لا يزال العلم الحديث يكشف عنها ، فهذا لا يتحقق فى كل آية ولا فى كل سورة ، وإنما يتحقق فى القرآن جملة ، ومن هنا حقق العلماء أن التحدى بأقصر سورة منه أو ما يعادلها أو بأى حديث مثله مهما قصر ، كان للعرب أولاً ، لأنهم أرباب اللسان ، وفرسان البيان ، فإن عجزوا هم عن معارضته فغيرهم أعجز ، والتحدى بهذا القدر من القرآن راجع إلى فصاحة كلماته ، وبراعة نظمه،وجزالة أسلوبه ، وبلاغته ، وهو ما عبرنا عنه بالجانب البيانى ، وهذا كله متحقق ـ كما قلنا ـ فى القدر المتحدى به أياً كان .

أما غير ذلك من جوانب الإعجاز التى تتحقق فى القرآن ككل ولا تتحقق فى كل أبعاضه ، فذلك يدركه كل إنسان عربيا كان أم غير عربى ، وهم جميعا متحدون بالقرآن جملة ومن كل هذه الجوانب بقوله سبحانه « **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** » (٢٢)

* * *

(٢٢) الاسراء : ٨٨

القرآن و العلم

● **القرآن يشيد بفضل العلم ويرفع من أقدار العلماء :**

فضل العلم قضية لا تحتاج إلى برهان يؤيدها ، وأقدار العلماء ومكانتهم العالية حقيقة لا ينكرها إلا من أنكر عقله وسفه نفسه !!

والقرآن الكريم ـ فى كثير من آياته ـ يشيد بفضل العلم ، ويرفع من أقدار العلماء ، وهو إذ يفعل ذلك لا يقصد إثبات حقيقة تحتاج إلى اثبات ، ولكنه يهدف إلى أن ينبه القلوب الغافلة والعقول اللاهية إلى قدسية العلم وسمو العلماء ، لعلها تتحرر من جهلها فتنخرط فى موكب العلم وتمضى فى ركاب العلماء لا تلوى على جهالة .

ولقد تكون أبلغ قارعة تقرع قلوب الغافلين وعقول اللاهين ، تلك الآيات البينات التى تقرر : أن العلم صفة من صفات الكمال التى يتصف بها الله سبحانه ويجب أن نقدسه عن الاتصاف بضدها :

« . . . **عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** »[1]

« **إن الله عالم غيب السموات والأرض . .** »[2] .

« **إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو،وسع كل شىء علما** »[3] .

ولقد يكون أبلغ شاهد بعد هذه الآيات على فضل العلم ومكانة العلماء ، تلك الآيات القرآنية التى وردت فى حق الأنبياء عليهم السلام : تثبت لهم صفة العلم ، وتقرر ـ فى صراحة ووضوح ـ أنها من نعم الله التى مَنَّ بها عليهم :

يقول ـ سبحانه ـ فى أول ما نزل من القرآن على نبيه محمد ﷺ : « **إقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** »[4] .

ويقول ممتناً عليه : « **وعلّمك ما لم تكن تعلم،وكان فضل الله عليك عظيما** »[5] .

---

(١) الرعد : ٩
(٢) فاطر : ٣٨
(٣) طه : ٩٨
(٤) العلق : ١ ـ ٤
(٥) النساء : ١١٣

ويقول مخاطبا عيسى عليه السلام وممتناً عليه : « **يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل** . . . »(٦) .

ويقول فى شأن داوود وسليمان عليهما السلام : « **ولقد آتينا داوود وسليمان علماً** . . »(٧) .

ويقول عن يوسف عليه السلام : « . . . **ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً** »(٨) .

ويقول فى شأن لوط عليه السلام : « **ولوطاً آتيناه حكما وعلما** . . . »(٩) .

ويقول عن آدم عليه السلام : « **وعلّم آدم الأسماء كلها** . . »(١٠) .

ثم نجد القرآن الكريم ـ بعد ذلك ـ ينكر على من يسوى بين العلماء وغير العلماء فيقول فى أسلوب تهكمى ساخر : « **هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » ؟(*) .

ثم هو بعد يقرر هذه الحقيقة : « **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** . . »(١١) .

ولعل الله جمع بين الايمان والعلم هنا ، وجعلهما السبب فى علو المكانة والمنزلة عنده ، لأن الايمان لا يقوم ولا يقوى إلا على أساس العلم بالله ، والعلم بكل ما جاء منه وصدر عنه :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

نعم ، فى كل شىء له آية تدل على وجوده ، ووحدانيته ، وقدرته ، وربوبيته . . وكل صفات الكمال له ، ولكنها آيات لا يعقلها إلا العالمون . أما الجاهلون : ففى غفلة وإعراض عن هذا كله ، كما يقول سبحانه وتعالى عنهم :

« **وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** »(١٢) .

---

(٦) المائدة : ١١٠
(٧) النمل : ١٥
(٨) يوسف : ٢٢
(٩) الأنبياء : ٧٤
(١٠) البقرة : ٣١
(*) الزمر : ٩
(١١) المجادلة : ١١
(١٢) يوسف : ١٠٥

obeikandl.com

● **القرآن يدعو إلى العلم والمعرفة :**

ولأن الله ـ سبحانه ـ يعلم أن من الناس ناساً قلوبهم غافلة عما فى الكون من حقائق ، وعقولهم لاهية عما تنطوى عليه هذه الحقائق من علوم ومعارف ، وأنهم بتعطيلهم لقلوبهم وعقولهم عن النظر فى ملكوت السموات والأرض ، واستنباط ما أودع الله فيهما من علوم وأسرار قد أهدروا إنسانيتهم ، وانحطوا بها إلى مستوى الحيوان الأعجم الذى لا عقل له ولا إدراك .

« لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »[13] .

لأن الله يعلم أن من الناس ناساً هذا شأنهم ، ساق فى محكم كتابه آيات تهيب بأصحاب هذه القلوب اللاهية : أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم على الكون وما فيه من آيات ، ليستخلصوا منها أسرارها وعلومها التى تأخذ بيدهم الى ما فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة ، فقال لهم فى صرامة الآمر واستنكار اللائم :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض . . »[14] .

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء . . »[15] .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت »[16] .

« وهو الذى أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون »[17] .

« وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون »[18]

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جددٌ بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء . . »[19] .

---

(١٣) الأعراف : ١٧٩
(١٤) يونس : ١٠١
(١٥) الأعراف : ١٨٥
(١٦) الغاشية : ١٧ ـ ٢٠
(١٧) الأنعام : ٩٩
(١٨) الذاريات : ٢٠ ، ٢١
(١٩) فاطر : ٢٧ ، ٢٨

انظر الى هذه الآيات ونحوها مما ورد فى القرآن الكريم ، فسوف ترى أنها تدعو بإصرار وإلحاف إلى إعمال العقل والفكر فى آيات الله التى بثها فى الآفاق والأنفس ، لنأخذ منها ـ كما قدمنا ـ الدليل على وجود الله وقدرته ، ثم لنستخلص منها بعد ذلك ما تحويه وتشير اليه من علوم ومعارف تنفع البشرية وتسعدها فى حياتها الدنيا التى لا تقوم إلا على العلم والمعرفة .

وتأمل قول الله سبحانه : « **إنما يخشى الله من عباده العلماء** » تجد أنه يقرر فى صراحة ووضوح ـ أن للعلم دخلاً كبيرا فى معرفة عظمة الخالق عن طريق ما يهدى اليه من المعرفة بعظمة المخلوق الذى فيه من الأسرار ما يجعل العالم الباحث المنقب يؤمن عن مشاهدة ويقين بأن الله هو الخلاق ذو القوة المتين ، فيتصاغر علمه أمام علم الله ، وتتضاءل معرفته أمام معرفة الله ، ويتبدد كبرياؤه وغروره أمام عظمة رب الكون .. رب العالمين !! ..

ومن هنا كانت قلوب الجاهلين مغلقة لا تنفتح على حق ولا تقبل حقيقة .

« **كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون** »(٢٠) .

وكانت قلوب العالمين مفتوحة على الحق تهتدى إليه وتؤمن به على طمأنينة ويقين :

« **وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون** »(٢١) .

« **والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا** »(٢٢) .

« **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم** »(٢٣) .

« **وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم** »(٢٤) .

والقرآن الكريم ـ حين يدعونا إلى العلم والمعرفة ـ لا يريد منا علماً فطيرا ، ولا يدعونا إلى معرفة فجة ، وانما يريد منا علما ناضجا يرتكز على قواعد ثابتة ، ومعرفة كاملة تنبنى على مقدمات سليمة ، وأن يكون سبيل ذلك كله وسائل العلم والمعرفة التى أودعها الله فى الإنسان ، يقول عز من قائل : « **ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** »(٢٥) .

---

(٢٠) الروم : ٥٩
(٢١) العنكبوت : ٤٣
(٢٢) آل عمران : ٧
(٢٣) آل عمران : ١٨
(٢٤) الحج : ٥٤
(٢٥) الاسراء : ٣٦

وتأمل قوله : « **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** » بعد قوله : « **ولا تقف ما ليس لك به علم** » تجد أن الله سبحانه ـ ينبه الى أن أدوات المعرفة ووسائلها عند الإنسان هى : سمعه ، وبصره ، وفؤاده ، فمن تلقف الوقائع وتقبل الأخبار ، وانتهى إلى النتائج بدون أن يتحراها ويتأكد صدقها وصحتها بكل وسائل المعرفة التى أودع الله فيه ، فقد عطل ما ميزه الله به عن غيره من الحيوان ، وسوف يسأله الله يوم القيامة عما ضيع من نعمة الله التى فضله بها وأوجب عليه شكرها بقوله : « **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** »(٢٦) .

وتأمل ـ بعد ذلك ـ قوله ـ سبحانه ـ فى شأن من ضلوا طريق الحق وأعرضوا عن سواء السبيل « **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس** »(٢٧) .

وقوله : « **وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن،وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا** »(٢٨) .

تأمل هاتين الآيتين تجد أن الله ما نعى على هؤلاء الضالين ضلالهم إلا لأنهم اطرحوا العلم الموصل للحقيقة وساروا وراء ظنونهم وأهوائهم . والظن سراب والهوى مهلكة .

والقرآن الكريم يكره لنا كل الكراهية أن نكون مقلدين لا مبتكرين :

« **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون .** »(٢٩) .

ولا يرضى القرآن للباحث عن الحقيقة أياً كانت أن يبحث عنها فى جو من الفوضى التى تحول دون رؤيتها ، وتعوق عن الوصول اليها ، وإنما يرضى لنا ويطلب منا أن نوفر للبحث العلمى الموصل للمعرفة بها جواً هادئاً يبعث على التأمل والتدبر فى روية وحكمة ، يقول سبحانه آمراً نبيه ليوجه المعاندين المكابرين من أمته :

« **قل إنما أعظكم بواحدة،أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا** »(٣٠) .

يقول العلامة الزمخشرى فى تفسيره لهذه الآية :

---

(٢٦) النحل : ٧٨

(٢٧) النجم : ٢٣

(٢٨) النجم : ٢٨

(٢٩) البقرة : ١٧٠

(٣٠) سبأ : ٤٦

obeikandl.com

« والمعنى : إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ، وهى : أن تقوموا لوجه الله خالصا متفرقين : اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، ثم تتفكروا فى أمر محمد ﷺ وما جاء به ، أما الاثنان : فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين ، لا يميل بهما اتباع هوى ، ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسنته . وكذلك الفرد : يفكر فى نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم . والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى : أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمى البصائر ، ويمنع من الرويّة ، ويخلط القول ، ومع ذلك يقل الانصاف ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب ، ولا يسمع إلا نصرة المذهب »[٣١] .

ويقرر القرآن الكريم ـ فى وضوح تام ـ أن الهداة والدعاة والقادة من أصحاب الرسالات الدينية ، أو المذاهب السياسية أو غيرها ، لابد أن يكونوا على جانب كبير من العلم والمعرفة ، حتى تتأكد زعامتهم وتلزم طاعتهم ، ولا يرضى القرآن لإنسان يحترم إنسانيته أن ينقاد لمن لا علم عنده ، ولا أن يكون منه بمنزلة التابع من المتبوع ، فإن من حرم العلم حرم الخير كله ، ومن لم يتحل بالمعرفة لا يصلح أن يكون قدوة : يقول الله ـ سبحانه ـ على لسان إبراهيم عليه السلام مخاطباً أباه : « **يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً** »[٣٢] .

ويقول مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام « **فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون** »[٣٣] .

ويقول لنبيه محمد ﷺ : « . . **ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون** »[٣٤] .

والقرآن الكريم لا يرى للعلم حداً يقف الإنسان عنده ، وانما يرى العلم بحراً لا ساحل له ، ويطلب منا أن نتزود منه ونزداد يوما بعد يوم دون أن نقف عند غاية ، ولهذا يقول الله ـ سبحانه ـ لرسوله محمد ﷺ وهو الأسوة والقدوة : « **وقل رب زدنى علما** »[٣٥] ولا يرى القرآن غضاضة فى أن يتلقى الفاضل عمن دونه فى الفضل ما لديه من علم يجهله ولو كان ذلك لا يتم إلا إذا كان منه بمنزلة التابع من المتبوع : يحل حيثما حل ويرتحل حيثما ارتحل ، وفى ذلك يقص

(٣١) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٥٦٥ ـ ٥٦٦ ـ ط : الحلبى سنه ١٩٤٨
(٣٢) مريم : ٤٣ (٣٣) يونس : ٨٩ (٣٤) الجاثية : ١٨
(٣٥) طه : ١١٤

obeikandi.com

علينا القرآن الكريم قصة موسى مع الخضر عليهما السلام :

« **فارتدا** (يعنى موسى وفتاه) **على آثارهما قصصا * فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا * قال إنك لن تستطيع معى صبرا * وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا * قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا * قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا** . »[٣٦] . . الى آخر القصة[٣٧] .

وتأمل قوله سبحانه : « **فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا** » تجد أن القرآن الكريم لا يرضى بالتسرع فى طلب المعرفة ، ولا يعدم التريث فى تحمله وتلقيه ، لأن ذلك قد يفوت الكثير على طالب المعرفة ، ومن أجل هذا يقول سبحانه لنبيه محمد ﷺ :

« **ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه . وقل رب زدنى علما** »[٣٨] .

ويقول : « **لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه** »[٣٩] .

* * *

● القرآن وما يحويه من العلوم :

تتبع العلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى آيات القرآن الكريم فلاحظ : أن الآيات التى تتعلق بالعلوم الكونية سبعمائة وخمسون آية صريحة ، وأن الآيات التى تتعلق بالفقه الإسلامى لا تزيد عن مائة وخمسين آية صريحة . . وانطلق ـ من خلال هذه النتيجة ـ يبدى الأسف والعجب لكثرة ما ألفه علماء المسلمين فى الفقه ، وقلة ما ألفوه فى علوم الكائنات ، وكان

---

(٣٦) الكهف : ٦٤ ـ ٨٢

(٣٧) راجع ما كتبه المفسرون على هذه الآيات ، وراجع صحيح البخارى وشروحه لهذا الحديث فى كتاب العلم .

قال القرطبى عند تفسيره لقوله تعالى « **هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا** » ما نصه : « فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وان تفاوتت المراتب ، ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه ؛ فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول ، والفضل لمن فضله الله ، فالخضر إن كان وليا فموسى أفضل منه لانه نبى ، والنبى أفضل من الولى ، وإن كان نبيا فموسى فضله بالرسالة » جـ ١١ ص ١٧ ط : دار الكتب المصرية .

(٣٨) طه : ١١٤

(٣٩) القيامة : ١٦ ـ ١٩

obeikandi.com

الأولى بهم أن يبرعوا أكثر وأكثر فى علوم الكائنات التى أعطاها الله حظاً أوفر من كتابه[٤٠] .

ولسنا ننكر على الشيخ طنطاوى ـ اذا تغاضينا عن منحاه فى التفسير العلمى للقرآن ـ ما أبداه من أسف وعجب ، فمبلغ علمنا وتعليلنا لزيادة الآيات المتعلقة بالعلوم الكونية على الآيات المتعلقة بالعلوم الفقهية تجعله على حق فيما ذهب إليه ، ذلك لأن العلوم الكونية لها تعلق قوى بالعقيدة الاسلامية ، فالنظر فيها طريق الى معرفة الله ، وكلما ازداد الإنسان علما بأسرار الكون ، كلما ازداد علماً بخالقه ومكونه ، هذا علاوة على ما يترتب على العلم بالكون وأسراره من تقدم ، ورقى ، وازدهار مادى ، لا يقل فى نظر الدين عن الجانب الدينى أو الروحى .

أما العلوم الفقهية أو علوم التشريع ، فهى ـ على أهميتها ـ تأتى فى المرتبة الثانية بعد العقيدة ، فالعقيدة أساس تقوم عليه الشريعة ، ولا يمكن أن يكون لها كيان بدونه .

والحقيقة التى لا يمارى فيها أحد : أن القرآن الكريم حوى من علوم الدين والدنيا ما فيه خير البشرية وسعادتها فى الدنيا والآخرة .

ولكن هذه الحقيقة تنازعها فريقان من المسلمين على مدى تاريخ القرآن الطويل : فريق غالى وبالغ فقال : إن القرآن الكريم حوى كل علوم الدنيا والدين ، ما كان منها وما يكون إلى يوم القيامة .

وفريق اعتدل والتزم أمراً وسطا فقال : إن القرآن حوى الكثير من علوم الدنيا والدين ، بعضها صريح ، وبعضها بتلميح ، ونبه إلى أن الكون ملىء بعلوم كثيرة حث على استنباطها من خلال كتاب الكون المفتوح أمام أبصارنا وبصائرنا لتفتح لنا الطريق الى الله ، ثم الى حياة زاهرة ، آمنة ، مستقرة . .

* * *

● **المتطرفون الذين حملوا القرآن كل علوم الدنيا والدين :**

ولقد كان من أبرز العلماء القدامى الذين تبنوا القول الأول وجهروا به وروجوا له فى الأوساط العلمية ، حجة الاسلام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، فقد نقل فى كتابه « **إحياء علوم الدين** »[٤١] عن بعض العلماء : « أن القرآن

---

(٤٠) انظر الجواهر فى تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوى جوهرى جـ ٢٥ ص ٥٣ ط : الحلبى سنة ١٣٤٠ ـ ١٣٥١هـ

(٤١) جـ٣ ص ١٣٥ ط : لجنة نشر الثقافة الاسلامية

يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم ، إذ كل كلمة علم ، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف : إذ لكل كلمة ظهر ، وباطن ، وحد ، ومطلع » . . . . ثم يروى عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : « من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن » . . ثم يقول بعد ذلك كله : « وبالجملة فالعلوم كلها داخلة فى أفعال الله عز وجل وصفاته ، وفى القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته ، وهذه العلوم لا نهاية لها ، وفى القرآن إشارة الى مجامعها » . . ثم يزيد على ذلك فيقول : « بل كل ما أشكل فهمه على النظار ، واختلف فيه الخلائق فى النظريات والمعقولات ، فى القرآن اليه رموز ودلالات عليه ، يختص أهل الفهم بدركها » .

ثم يمضى الغزالى ـ فى كتابه « **جواهر القرآن** » الذى ألفه فيما يبدو بعد كتابه : الإحياء ـ فيقرر هذا الرأى الذى قرره فى الإحياء ويزيده بيانا وتفصيلا ، وذلك حيث يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن ، فيذكر علم الطب والنجوم وهيئة العالم ، وهيئة بدن الحيوان ، وتشريح أعضائه ، وعلم السحر ، وعلم الطلسمات . . وغير ذلك ، ثم يقول : « ووراء ما عددته علوم أخرى يعلم تراجمها ولا يخلو العالم عمن يعرفها ، ولا حاجة إلى ذكرها ، بل أقول : ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التى لا يتمارى فيها : أن فى الإمكان والقوة أصنافا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود وإن كان فى قوة الآدمى الوصول اليها ، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن . . وعلوم أخر ليس فى قوة البشر إدراكها والإحاطة بها . . ثم هذه العلوم ـ ما عددناها وما لم نعددها ـ ليست أوائلها خارجة من القرآن ، فإن جميعها متفرقة من بحر واحد من بحار معرفة الله ، وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له ، وأن البحر لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد . . . فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال ـ مثلا ـ الشفاء والمرض ، كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم « **وإذا مرضت فهو يشفين** »(٤٢) وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله ، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته ، ومعرفة الشفاء وأسبابه . ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان ، وقد قال تعالى : « **الشمس والقمر بحسبان** »(٤٣) وقال : « **وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب** »(٤٤)

---

(٤٢) الشعراء : ٨٠
(٤٣) الرحمن : ٥
(٤٤) يونس : ٥

obeikandi.com

وقال : « . . . **وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر** »[٤٥] وقال : « **يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل** »[٤٦] وقال : « **والشمس تجرى لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم** »[٤٧] ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما ، وولوج الليل فى النهار ، وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض وهو علم برأسه . ولا يعرف كمال معنى قوله « **يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم * الذى خلقك فسواك فعدلك * فى أى صورة ما شاء ركبك** »[٤٨] إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطنا ، وعددها ، وأنواعها ، وحكمتها ، ومنافعها ، وقد أشار فى القرآن ـ فى مواضع ـ إليها ، وهى من علوم الأولين والآخرين . وفى القرآن مجامع علم الأولين والآخرين . وكذلك لا يعرف معنى قوله : « **سويته ونفخت فيه من روحى** »[٤٩] ما لم يُعلم التسوية ، والنفخ . . ، والروح ، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق،وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها . ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها . . فتفكر فى القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين[٥٠] .

ثم يأتى جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ويقرر فى كتابه « الإتقان فى علوم القرآن » وفى كتابه « الإكليل فى استنباط التنزيل » ما قرره الغزالى من أن القرآن حوى كل علوم الأولين والآخرين ، ويسوق من الأدلة على ذلك قوله تعالى « **ما فرَّطنا فى الكتاب من شىء** »[٥١] .

وقوله : « **ونزَّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء** »[٥٢] .

وقوله ﷺ فى شأن القرآن . . كما فى سنن الترمذى ـ « فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم » وقول ابن مسعود رضى الله عنه ـ كما أخرجه ابن أبى حاتم ـ « أنزل فى القرآن كل علم ، وبُين لنا فيه كل شىء ، لكن علمنا يقصر عما بُين لنا فى القرآن » [٥٣] .

---

(٤٥) القيامة : ٨ ، ٩
(٤٦) الحج : ٦١ ، لقمان : ٢٩
(٤٧) يس : ٣٨
(٤٨) الانفطار : ٦ ـ ٨
(٤٩) الحجر : ٢٩ وسورة ص : ٧٢
(٥٠) جواهر القرآن ص ٣٢ ـ ٣٤ ط : كردستان العلمية ١٣٢٩هـ
(٥١) الأنعام : ٣٨
(٥٢) النحل : ٨٩
(٥٣) الاكليل ص ٢ ، والاتقان ص ١٢٦

ثم يذكر السيوطى عن أبى الفضل المرسى : أنه قال فى تفسيره : « جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله ﷺ ـ خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى ـ ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، حتى قال : « لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله تعالى . ثم ورث عنه التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم ، وفترت العزائم ، وتضاءل أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه . . »

ثم تكلم عن العلوم التى تفرعت عن القرآن فذكر : علم القراءات ، وعلم النحو ، وعلم التفسير ، وعلم الأصول ، وعلم الفقه ، وعلم القصص والتاريخ ، وعلم تأويل الآى ، وعلم الفرائض ، وعلم البلاغة . . ثم قال: « هذه الفنون أخذتها الملة الإسلامية منه ـ يعنى القرآن ـ وقد احتوى على علوم أخر من علوم الأوائل مثل : الطب ، والجدل ، والهيئة ، والهندسة ، والجبر ، والمقابلة ، والنجامة وغير ذلك من العلوم :

أما الطب : فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة ، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة ، وقد جمع ذلك فى آية واحدة وهى قوله تعالى : « **وكان بين ذلك قواما** »(٥٤) .

وعرَّفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله ، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله فى قوله تعالى : « **شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** »(٥٥) . ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب : « **وشفاء لما فى الصدور** »(٥٦) .

وأما الهيئة : ففى تضاعيف سوره من الآيات التى ذكر فيها ملكوت السموات والأرض ، وما بث فى العالم العلوى والسفلى من المخلوقات .

وأما الهندسة : ففى قوله تعالى : « **انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغنى من اللهب** »(٥٧) فإن فيه قاعدة هندسية ، وهى أن الشكل المثلث لا ظل له .

وأما الجدل : فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج ، والقول بالموجب ، والمعارضة وغير ذلك شيئا كثيرا ، ومناظرة ابراهيم نمرود ، ومحاجته قومه أصل فى ذلك عظيم .

---

(٥٤) الفرقان : ٦٧

(٥٥) النحل : ٦٩

(٥٦) يونس : ٥٧

(٥٧) المرسلات : ٣٠ ، ٣١

obeikandi.com

وأما الجبر والمقابلة : فقد قيل : إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام التواريخ لأمم سالفة ، وأن فيها بقاء هذه الأمة ، وتاريخ مدة أيام الدنيا وما مضى وما بقى مضروب بعضها فى بعض .

وأما النجامة : ففى قوله تعالى « **أو أثارة من علم** »(٥٨) فقد فسره بذلك ابن عباس .

وفيه أصول الصنائع ، وأسماء الآلات التى تدعو الضرورة إليها : كالخياطة فى قوله « **وطفقا يخصفان** »(٥٩) . والحدادة « **آتونى زبر الحديد** »(٦٠) . والبناء فى آيات . والنجارة : « **واصنع الفلك بأعيننا** »(٦١) . والغزل : « **نقضت غزلها** »(٦٢) . والنسج : « **كمثل العنكبوت اتخذت بيتا** »(٦٣) . والفلاحة : « **أفرأيتم ما تحرثون . .** »(٦٤) الآيات ، والصيد : فى آيات . والغوص : « **والشياطين كل بناء وغوّاص** »(٦٥) « **وتستخرجوا منه حلية** »(٦٦) . والصباغة : « **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً** »(٦٧) . والزجاجة : « **صرح ممرد من قوارير** »(٦٨) « **المصباح فى زجاجة** »(٦٩) . والفخارة : « **فأوقد لى يا هامان على الطين** »(٧٠) . والملاحة : « **أما السفينة . .** »(٧١) الآية . والكتابة : « **علَّم بالقلم** »(٧٢) وفى آيات أخر . والخبز : « **أحمل فوق رأسى خبزا** »(٧٣) . والطبخ : « **بعجل حنيذ** »(٧٤) . والقصارة : « **وثيابك فطهر** »(٧٥) « **قال الحواريون** »(٧٦) ، وهم القصارون . والجزارة : « **إلا ما ذكيتم** »(٧٧) . والبيع والشراء : فى آيات . والصبغ : « **صبغة الله** »(٧٨) « **جدد بيض وحمر** »(٧٩) . والحجارة : « **وتنحتون من الجبال بيوتا** »(٨٠) . والكيالة والوزن فى آيات كثيرة . والرمى : « **وما**

---

(٥٨) الاحقاف : ٤
(٥٩) الأعراف : ٢٢ و طه : ١٢١
(٦٠) الكهف : ٩٦
(٦١) هود : ٣٧
(٦٢) النحل : ٩٢
(٦٣) العنكبوت : ٤١
(٦٤) الواقعة ٦٣ وما بعدها
(٦٥) سورة ص : ٣٧
(٦٦) النحل : ١٤
(٦٧) الاعراف : ١٤٨
(٦٨) النمل : ٤٤
(٦٩) النور : ٣٥
(٧٠) القصص : ٣٨
(٧١) الكهف : ٧٩
(٧٢) العلق : ٤
(٧٣) يوسف : ٣٦
(٧٤) هود : ٦٩
(٧٥) المدثر : ٤
(٧٦) آل عمران : ٥٢ والمائدة : ١١٢ والصف : ١٤
(٧٧) المائدة : ٣
(٧٨) البقرة : ١٣٨
(٧٩) فاطر : ٢٧
(٨٠) الشعراء : ١٤٩

رميت إذ رميت»[٨١] «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**»[٨٢] . وفيه من أسماء الآلات ، وضروب المأكولات ، والمشروبات والمنكوحات ، وجميع ما وقع ويقع فى الكائنات ما يحقق معنى قوله : «**ما فرطنا فى الكتاب من شيء**»[٨٣] قال السيوطى : انتهى كلام المرسى ملخصا مع زيادات[٨٤] .

. . وأخيراً عقب السيوطى على هذا بقوله : «وأنا أقول : قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء : أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هى أصل إلا وفى القرآن ما يدل عليها ، وفيه عجائب المخلوقات ، وملكوت السموات والأرض وما فى الأفق الأعلى ، وما تحت الثرى و. . الى غير ذلك مما يحتاج إلى مجلدات» (٨٥).

ثم يأتى من المحدثين من يقول بما قال به الغزالى والسيوطى وأبوالفضل المرسى ، مع مزيد من المبالغة والتكلف ، وعلى رأس هؤلاء المحدثين المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى فقد حَمَّل كتاب الله كل علوم الدنيا والدين فى كتابه «الجواهر فى تفسير القرآن الكريم» .

ولو أننا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم فى هذا العصر الحديث وفى وقتنا الحاضر بالذات لوجدنا لأصحاب هذا المنزع العلمى فى فهم القرآن الكريم وتفسيره بحوثا كلها تعسف وتكلف ، ولوجدنا لهم فى ذلك مؤلفات كثيرة تُحمِّل بعض النصوص القرآنية ما لا تحتمل من نظريات علمية مستحدثة .

ونستعرض بعض هذه الكتب فنرى فيها عجبا :

ففى كتاب ((الجواهر فى تفسير القرآن الكريم)) للمرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة البقرة : «**وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** . . . »الآيات(٦٧)وما بعدها إلى آخر القصة . . . نراه يقول ما نصه :

«وأما علم تحضير الأرواح ، فان من هذه الآية ، استخراجه . إن هذه الآية تتلى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولاً ، ثم بأوروبا ثانياً . . » .

---

(٨١) الأنفال : ١٧ (٨٢) الأنفال : ٦٠

(٨٣) الأنعام : ٣٨

(٨٤) الاكليل ص ٢ ـ ٥ ، والاتقان جـ٢ . ص ١٢٦ ـ ١٢٨ .

(٨٥) الاتقان جـ٢ ص ١٢٩ ـ ١٣٠

ثم يذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم ، وكيفية انتشاره ، ومدى فائدته ، ثم يقول : « ولما كانت السورة التى نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته ، وكذلك حماره ، ومسألة الطير وأبراهيم الخليل ، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون فماتوا ثم أحياهم . . وعلم الله أننا نعجز عن ذلك ، جعل قبل ذكر تلك الثلاثة فى السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح فى مسألة البقرة ، كأنه يقول : إذا قرأتم ما جاء عن بنى إسرائيل فى إحياء الموتى فى هذه السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك ، فإنى قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة ، واسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون . . »(*) .

وفى كتاب « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » للمرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبى نراه يقول فى ص(٢٣ - ٢٥)ما نصه :

« إن العلم كشف فى هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا ، والمدقق فى القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به فى القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا ، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن ، شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه » .

ثم يذكر بعض المكتشفات العلمية التى يقول إن القرآن سبق إليها فيقول :

« . . . وكشفوا أن التغيير فى التركيب الكيماوى ، بل والمعنوى ناشئ عن تخالف نسبة المقادير ، والقرآن يقول : « **وكل شيء عنده بمقدار** »[٨٦] .

« وكشفوا طريقة إمساك الظل ، أى التصوير الشمسى ، والقرآن يقول : « **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا** »[٨٧] .

وفى كتاب ((الإسلام والطب الحديث)) للمرحوم الدكتور عبد العزيز اسماعيل ، نراه يعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٢) من سورة البقرة « **وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم** »تحت عنوان ((الحياة تحت ضوء القرآن)) فيقول فى ص(١٣ - ١٥) ما نصه :

(*) الجواهر جـ١ ص ٧١ - ١٧٧ ط الحلبى ١٣٤٠ - ١٣٥١هـ

(٨٦) الرعد : ٨ (٨٧) الفرقان : ٤٥

« هذه الآية الكريمة معناها ـ والله أعلم ـ أن اللحوم والأسماك والألبان . إلخ . أفضل فى التغذية من البقول والقمح والذرة »

ثم يعقد مقارنة بين الأغذية الحيوانية والأغذية النباتية ، ويخرج بنتيجة تقرر هذه الأفضلية ثم يقول :

« إن هذه النتيجة التى لخصها القرآن الشريف لم تظهر حقيقة ثابتة إلا منذ سنوات قليلة » .

وها نحن ـ أخيرا ـ نقرأ لبعض الكاتبين ، ونسمع من بعض المحاضرين نماذج من هذا التفسير العلمى للقرآن الكريم وفى كثير منها تكلف ظاهر :

يقول بعضهم : إن الصعود إلى القمر والنزول على سطحه ـ وهو أحدث ما وصل اليه العلم فى عصرنا ـ قد ورد فى آيات من القرآن الكريم منها :

قوله تعالى : « **يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا،لا تنفذون إلا بسلطان** »[88] . يعنى سلطان العلم .

وقوله : « **ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير** »[89] . وها هو ذا سائل يسأل المرحوم الاستاذ العقاد فيقول :

قوله تعالى : « **فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين** »[90] . أليس من الممكن أن تعتبر هذه الآية الشريفة ـ يريد الآيتين ـ إشارة مبكرة من القرآن الكريم إلى القذيفة الذرية ، ودليلا قاطعا على سبق القرآن العلمى الذى أمكن اثباته فى مواضع كثيرة ؟ »[91] .

هذه بعض الأقوال والآراء لجماعة من الغلاة المتطرفين !! . .

***

● **المعتدلون الذين لم يحملوا القرآن كل العلوم :**

أما الفريق المعتدل الذى لم يشأ أن يُحمِّل القرآن كل علوم الأولين والآخرين ، ولا أن يخضعه للنظريات العلمية ، فأبرز علمائه الأقدمين :

(٨٨) الرحمن : ٣٣ (٨٩) الشورى : ٢٩

(٩٠) الأحقاف : ٢٤ ، ٢٥

(٩١) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٢٠١ ط : دار الكتاب العربى

الفقيه الأصولى أبو إسحاق الشاطبى المتوفى سنة ٧٩٠ هـ فقد حمل لواء المعارضة ، وتوجه باللوم إلى من حمّلوا القرآن كل علوم الدنيا والدين ، وبين أنهم قد تجاوزوا الحد فى دعواهم على القرآن فقال :

« ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها ـ وهم العرب ـ ينبنى عليه قواعد : منها أن كثيراً من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحد فأضافوا اليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبيعيات ، والتعاليم: كالهندسة وغيرها من الرياضيات ، والمنطق ، وعلم الحروف ، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها ، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح »(٩٢) .

ثم يصحح الشاطبى رأيه هذا ، ويحتج له بما عرف عن السلف من نظرهم فى القرآن ، فيقول : « إن السلف الصالح ـ من الصحابة والتابعين ومن يليهم ـ كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه ، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم فى هذا المدعى سوى ما تقدم (٩٣) ، وما ثبت من أحكام التكاليف ، وأحكام الآخرة ، وما يلى ذلك ، ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة ، إلا أن ذلك لم يكن فدل على أنه غير موجود عندهم ، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا(٩٤) .

ويمضى الشاطبى فينقض أدلة الغلاة التى استندوا إليها من نحو قوله تعالى : « **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء** »(٩٥) وقوله : « **ما فرطنا فى الكتاب من شيء** »(٩٦) بحملها على ما يتعلق بحال التكليف والتعبد .

ثم ينهى الشاطبى كلامه بقوله :

« . . فليس من الجائز أن يضاف الى القرآن ما لا يقتضيه كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه ، ويجب الاقتصار فى الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه الى العرب خاصة ، فبه يوصل الى علم ما أودع من الأحكام الشرعية ، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه ، وتقوَّل على الله ورسوله فيه ، والله أعلم وبه التوفيق »(٩٧)

(٩٢) الموافقات جـ٢ ص ٧٩ ط : التجارية . وهو يقصد بما تقدم ما قرره من أن الشريعة أمية وأهلها كذلك وتنزيلها كان على مقتضى حال المنزل عليهم ، وحالهم الاعتناء ببعض علوم ذكرها لا بكل العلوم .

(٩٣) يريد أن العرب لم يتكلموا إلا فى العلوم التى كانت لهم معرفة بها .

(٩٤) الموافقات جـ ٢ ص ٧٩ ـ ٨٠

(٩٥) النحل : ٨٩

(٩٦) الأنعام : ٣٨

(٩٧) الموافقات جـ ٢ ص ٨٠ ـ ٨٢

وفى العصر الحديث نجد من بين علمائنا الأفاضل من يتصدى للغلاة الذين حملوا القرآن كل علوم الأولين والآخرين ، وعلى رأس هؤلاء الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى ، فقد قال فى تقريظه لكتاب « الاسلام والطب الحديث » الذى تحدثنا عنه من قبل :

« لست أريد من هذا ـ يعنى ثناءه على الكتاب ومؤلفه ـ أن أقول : إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلا بالأسلوب التعليمى المعروف ، وإنما أريد أن أقول : إنه أتى بأصول ، وترك الباب مفتوحا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ، ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها فى الزمان الذى هم عائشون فيه »[98] .

* * *

. . . وهكذا نجد لكل من فكرتى الغلو والاعتدال فى قضية القرآن وما حوى من العلوم مؤيدين ومعارضين من بين علمائنا القدامى والمحدثين .

والذى نرتضيه فى هذا الشأن هو ما يلى :

١ ـ أن القرآن حوى كثيرا من علوم الدنيا والدين تصريحا أو تلميحا .

٢ ـ أن اهتمام القرآن بعلوم الدنيا لا يقل عن اهتمامه بعلوم الدين ، لأن علوم الدنيا تؤيد الدين ، وتحميه ، وتفتح الطريق أمامه ، وإلا فما السر فى امتنان الله سبحانه ـ على داوود عليه السلام وقومه بقوله : « **وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون** » ؟[99] .

وقوله : « **ولقد آتينا داوود منا فضلا ، ياجبال أوّبى معه والطير ، وألّنا له الحديد * أن اعمل سابغات وقدّر فى السرد ، واعملوا صالحا ، إنى بما تعملون بصير** »[100] .

وعلى أى أساس غير علوم الدنيا يمكن أن نستجيب لأمر الله سبحانه « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . .** » ؟[101] .

---

(٩٨) الاسلام والطب الحديث ص(د). وانظر ما كتبه المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار جـ١ ص ٧ . وما كتبه المرحوم الاستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت فى العدد ٤٠٧ ـ ٤٠٨ من السنه التاسعة لمجلة الرسالة (ابريل سنة ١٩٤١) وما كتبه المرحوم الاستاذ الشيخ أمين الخولى فى كتابه (التفسير : معالم حياته ، منهجه اليوم)عند الكلام عن التفسير العلمى

(٩٩) الأنبياء : ٨٠

(١٠٠) سبأ : ١٠ ، ١١

(١٠١) الأنفال : ٦٠

٣ ـ أن العلم لا يقف عند غاية ، وأن الكون ملىء بأسرار لا تحصى : ومهما كشف الإنسان من حجب عن أسرار هذا الكون ، فلن يستوعب كل مكنونه من علوم ومعارفه ويقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة فى نحو قوله عز وجل :

« **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** »(١٠٢) .

وقوله : « **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** »(١٠٣) .

وقوله : « **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** »(١٠٤) .

ولن يحيط بكل شىء علما إلا الله خالق الكون ومبدعه :

« **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** » ؟(١٠٥) .

« **وهو بكل خلق عليم** »(١٠٦) .

« **وكنا بكل شىء عالمين** »(١٠٧) .

« **وكان الله بكل شىء عليما** »(١٠٨) .

٤ ـ أن الله ـ سبحانه ـ لا يرضى للإنسان الذى استخلفه فى الأرض واستعمره فيها أن يقنع بالقليل من العلم ، أو ينام عن استجلاء ما احتواه الكون من أسرار ، بل طلب إليه ـ كما قدمنا ـ فى اصرار وإلحاف أن يتعرف على ما فى الكون من كنوز العلم والمعرفة ، بالنظر والتأمل ما وسعه ذلك « **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** »(١٠٩) وبالرجوع الى العلماء المختصين فيما وقفت قدرته دونه « **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** »(١١٠) .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن الظواهر الكونية ، ثم تختم هذه الآيات بنحو قوله تعالى : « **قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون** »(١١١) .

« **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** »(١١٢) .

« **إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون** »(١١٣) .

« **إن فى ذلك لآيات للعالمين** »(١١٤) .

---

(١٠٢) الاسراء : ٨٥
(١٠٣) يس : ٣٦
(١٠٤) فصلت : ٥٣
(١٠٥) الملك : ١٤
(١٠٦) يس : ٧٩
(١٠٧) الأنبياء : ٨١
(١٠٨) الأحزاب : ٤٠
(١٠٩) يونس : ١٠١
(١١٠) الأنبياء : ٧
(١١١) الأنعام : ٩٨
(١١٢) الرعد : ٣
(١١٣) النحل : ٦٧
(١١٤) الروم : ٢٢

ولسنا نفهم من هذه العبارات وأمثالها إلا أن الله يهيب بأولى الألباب والعقول أن يفتحوا أبصارهم وبصائرهم على آياته التى بثها فى الأنفس والآفاق ليتكشف لهم بعض ما حواه الكون من علوم وأسرار تشهد أولاً على قدرة الله وعلو سلطانه ثم لتكون لهم هذه الثروة العلمية ـ فيما بعد ـ مصدر قوة وعزة ومنعة فى حياة سلاحها العلم والمعرفة .

٥ ـ لا شك أن القرآن الكريم يتحدث الى عقول الناس جميعاً من لدن نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو يساير حياتهم فى كل ما يمرون به من مراحل الزمن ، وهذا كله بحكم كونه كتاب الشريعة العامة الشاملة ، وقانون الدين الذى جعله الله خاتم شرائع السموات إلى أهل الأرض »[١١٥] .

ولا شك أن فى القرآن الكريم نصوصا يفهمها العربى وقت نزول القرآن على نحو ما وصل اليه العلم فى زمانه ، ولا يكاد يخرج فهمه عن حدود دلالة النص ، ويفهمها العربى فى العصر الحديث على ضوء ما وصل اليه العلم فى زمانه فهماً آخر لا يخرج هو أيضا عن دلالة النص ومثال ذلك :

قوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة الأنبياء « **أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما** » فقد فسرها عبد الله بن عباس على ضوء ما وصل اليه العلم فى زمانه تفسيراً تحتمله الآية فقال :

« كانت السموات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت فلما خلق للأرض أهلا ، فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات »[١١٦] .

وفسرها بعض علماء العصر الحديث على ضوء ما انتهى اليه العلم فى زمانه فقال :

« قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها . . . وهذا الذى قرره الكتاب الكريم هو الذى دل عليه العلم وقد قال العلماء : إن حادثا كونيا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها ، وأن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعا ، كل قطعة منها صارت سياراً من السيارات ، وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت فى قبضة جذبتها ، والأرض واحدة من هذه السيارات ، فهى بنت الشمس ،

---

(١١٥) التفسير والمفسرون جـ ٢ ص ١٥٨

(١١٦) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٧٧ ط : الحلبى

والشمس هى المركز لكل هذه السيارات . . »(١١٧) .

ولا نكاد نجد تعارضا بين الفهمين ، والآية - على فرض صحة الرأى الثانى - تتسع لهما وذلك من وجوه الاعجاز القرآنى .

غير أن بعض الذين فتنوا بنظرية أن القرآن حوى كل ما كان وما يكون من العلوم ، بالغوا فحملوا بعض النصوص القرآنية حملاً فيه تعسف ظاهر وتكلف غير مقبول على بعض العلوم ومصطلحاتها التى جدت ولم يكن للعرب عهد بها من قبل ، بل وعلى بعض النظريات العلمية التى لم تستقر بعد ، ومن لم تستخفهم هذه النزوة العلمية قرروا : أن هذا تأول للقرآن على غير تأويله .

يقول الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى رحمه الله - فى تقريظه لكتاب ((الإسلام والطب الحديث)) :

« يجب ألا نجر الاية الى العلوم كى نفسرها بها ، ولا العلوم إلى الاية ، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها »(١١٨) .

ويقول فى أحد دروسه التى كان يلقيها فى تفسير القرآن الكريم :

« وجد الخلاف بين المسلمين فى العقائد والأحكام الفقهية ، ووجد عندهم مرض آخر هو : الغرور بالفلفة ، وتأويل القرآن ليرجع إليها ، وتأويله وفقا لبعض النظريات العلمية التى لم يقر قرارها وذلك خطر عظيم على الكتاب ، فإن للفلاسفة أوهاما لا تزيد عن هذيان المصاب بالحمى . والنظريات التى لم تستقر بعد لا يصح أن يُرَدّ إليها كتاب الله »(١١٩) .

ويقول الاستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله تعالى :

« كل ما يجب على المسلم أن يؤمن به : أن كتابه الإلهى يأمر بالبحث والتفكير ، ولا ينهاه عنه ، ولا يصده عن النظر والتأمل فى مباحث الوجود وأسرار الطبيعة وخفايا الحوادث كيفما كان ، ولكنه لا يأمره بالتماس التوفيق بين نصوصه وبين نظريات العلوم كلما ظهرت منها نظرية بعد نظرية يحسبها العلماء ثابتة مقررة وهى عرضة بعد قليل للنقض والتبديل »(١٢٠) .

* * *

---

(١١٧) تفسير سورة لقمان للاستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ص ١٣ ولبعض المفسرين الأقدمين أقوال قريبة من هذا المعنى فراجع كتب التفسير لهذه الآية .

(١١٨) الاسلام والطب الحديث ص ٣

(١١٩) الدروس الدينية للشيخ محمد مصطفى المراغى لسنة ١٣٥٦هـ ص ٤٢

(١٢٠) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٢٠٦ ط : دار الكتاب العربى ببيروت .

ويقول فى موضع آخر :

« فمن الحق أن نعلم أن كتابنا يأمرنا بالبحث والنظر والتعلم والإحاطة بكل معلومٍ يصدر عن العقول ، ولكن ليس من الحق أن نزعم : أن كل ما تستنبطه العقول مطابق للكتاب ، مندرج فى ألفاظه ومعانيه ، فإن كثيرا من آراء العلماء التى يستنبطونها أول الأمر لا يعدو أن يحسب من النظريات التى يصح منها ما يصح ، ويبطل منها ما يبطل ، ولا تستغنى على الدوام عن التعديل واعادة النظر من حين الى حين »(١٢١)

ويبدو لنا أن هؤلاء الغلاة حمّلوا القرآن الكريم ما لا يحتمل من علوم ونظريات حتى جعلوه مصدراً لجوامع الطب ، وضوابط الفلك ، ونظريات الهندسة ، وقوانين الكيمياء ، ومعادلات الرياضة . . . إلخ،حسبوا ، أن ذلك يخدم القرآن الكريم ، ويبرز جانبا هاما من جوانب اعجازه ، وهذا وهم منهم ، فإن مثل هذا التكلف لا يبرز الاعجاز ، وإنما يذهب بالإعجاز !! . .

وليعلم هؤلاء الغلاة أن القرآن الكريم غنى عن أن يعتز بمثل هذا التكلف الذى يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنسانى الاجتماعى فى اصلاح الحياة ، ورياضة النفس ، والرجوع بها الى الله !! . .

وليعلموا ـ أيضا ـ أن من الخير لهم ولكتابهم أن لا يسلكوا هذا المسلك فى فهم القرآن وتفسيره ، رغبة منهم فى اظهار اعجازه ، وصلاحيته للتمشى مع التطور العلمى فى مراحله الزمنية المتتابعة ، وحسبهم وحسب القرآن إعجازاً أن لا يكون فيه نص يصادم حقيقة علمية ثابتة ، وأنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جدّ ويجد من نظريات وقوانين تقوم على أساس من الحق وتستند إلى أصل صحيح(١٢٢) .

* * *

(١٢١) التفكير فريضة اسلامية للعقاد ص ٧٨ ط : دار الكتاب العربى ببيروت .

(١٢٢) انظر كتابنا التفسير والمفسرون جـ ٢ ص ١٥٧ ـ ١٦٠

ترجمة القرآن الكريم

● معنى الترجمه وأنواعها :

كلمة الترجمة تطلق فى اللغة على معنيين :

الأول : نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى بدون بيان لمعنى الأصل المترجم ، وذلك كوضع رديف مكان رديف من لغة واحدة .

الثانى : تفسير الكلام وبيان معناه بلغة أخرى .

قال فى تاج العروس : « . . . والترجمان : المفسر للسان . وقد ترجمه وترجم عنه اذا فسر كلامه بلسان آخر . قال الجوهرى : وقيل : نقله من لغة إلى لغة أخرى » .

وعلى هذا فالترجمة نوعان :

١ ـ ترجمة حرفية .

٢ ـ وترجمة معنوية أو تفسيرية .

فالترجمة الحرفية : هى نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى مع مراعاة الموافقة فى النظم والترتيب ، والمحافظة على جميع معانى الأصل المترجم من غير شرح ولا بيان .

والترجمة المعنوية أو التفسيرية : هى شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى بدون مراعاةلنظم الأصل وترتيبه ، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه ، إما لعدم اتساع اللغة المترجم إليها لكل معانى الأصل المترجم ، وإما لدقة بعض المعانى وعدم إدراك المترجم لها .

وواضح مما تقدم : أن الترجمة الحرفية تقوم مقام الأصل وتسد مسده ، لأنها مطابقة له تمام المطابقة ولا اختلاف بينهما إلا فى اللغة فقط . أما الترجمة المعنوية فلا تقوم مقام الأصل ولا تسد مسده لأنها لا تطابقه وانما تطابق المعنى الذى فهمه المترجم وفسر به عبارة الأصل .

* * *

● ترجمة القرآن بين المجيزين والمانعين وحقيقة الخلاف :

ولقد وقف علماء المسلمين ـ قدامى ومحدثون ـ من ترجمة القرآن الكريم

موقفين متعارضين : منهم من يقول بعدم جوازها ، ومنهم من يقول بجوازها ، وكل من الفريقين يبنى رأيه على أدلة يراها سليمة من وجهة نظره .

ولا نريد أن نطيل بذكر أدلة الفريقين ، لأن الخلاف بينهما صورى لا حقيقة له : فكل منهما ينظر من زاوية معينة غير التى ينظر منها الآخر : فالقائلون بعدم جواز ترجمة القرآن الكريم ينظرون إلى الترجمة الحرفية فيرون أنها غير ممكنة ولا جائزة . والقائلون بالجواز ينظرون إلى الترجمة المعنوية أو التفسيرية فيرونها ممكنة وجائزة . ولو كان ملحظ الفريقين واحداً ما وقع هذا الخلاف الذى احتدم بين العلماء من زمن قريب : وكان له فيما بينهم مساجلات ومناظرات شهدتها منابر الجمعيات والمنتديات ، وسجلتها أمهات الصحف والمجلات والنشرات، ونال بعضهم من بعض حتى تراموا بالزندقة والإلحاد !! . .

لو أن الفريقين حرروا موضع النزاع لاتفقوا على قول واحد ، وهو : «أن الترجمة الحرفية للقرآن غير ممكنة ولا جائزة ، أما الترجمة المعنوية فممكنة وجائزة ، بل وقد تكون واجبة » .

هذه حقيقة لا أظن عاقلا ينازع فيها ، أو مسلماً يتحرج من القول بها ، ونوضح ذلك فنقول :

أما ان الترجمة الحرفية للقرآن الكريم غير ممكنه ولا جائزة : فذلك لأن الترجمة الحرفية معناها أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى تحاكيه حذواً بحذو بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفرداته ، وأسلوبها محل أسلوبه ، حتى تتحمل الترجمة ما تحمله نظم الأصل من المعانى المقيدة بكيفياتها البلاغية ، وأحكامها التشريعية ، وهذا غير ممكن بالنسبة لكتاب الله العزيز ، وذلك لأن القرآن الكريم ـ كما سبق أن بينا ـ نزل لغرضين أساسيين :

أولهما : كونه آية دالة على صدق النبى محمد ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وذلك بكونه معجزاً للبشر ، لا يقدرون على الإتيان بسورة من مثله ولو اجتمع الإنس والجن على ذلك .

وثانيهما : هداية الناس لما فيه صلاحهم فى دنياهم وأخراهم .

أما الغرض الأول وهو كونه آية على صدق النبى محمد ﷺ فلا يمكن تأديته بالترجمة اتفاقاً ، فإن القرآن ـ وان كان الإعجاز به فى جملته لعدة معان كالإخبار بالغيب واستيفاء تشريع لا يعتريه خلل ، وغير ذلك مما عدّ من وجوه إعجازه ـ إنما يدور الإعجاز السارى فى كل آية منه على ما فيه من خواص بلاغية جاءت لمقتضيات معينة ، وهذه لا يمكن نقلها إلى اللغات الأخرى اتفاقاً ، فإن

اللغات الراقية وإن كان لها بلاغة ولكن لكل لغة خواصها التى لا يمكن إن يشاركها فيها غيرها من اللغات ، وإذن فلو ترجم القرآن ترجمة حرفية ـ وهذا محال ـ لضاعت خواص القرآن البلاغية[1] ، ولنزل القرآن من مرتبته المعجزة إلى مرتبة تدخل تحت طوق البشر ، ولفات هذا المقصد العظيم الذى نزل القرآن من أجله على محمد ﷺ .

وأما الغرض الثانى ، وهو كونه هداية للناس إلى ما فيه سعادتهم فى الداربن ، فذلك باستنباط الأحكام والإرشادات منه ، وهذا يرجع بعضه إلى المعانى الأصلية التى يشترك فى تفهمها وأدائها كل الناس وتقوى عليها جميع اللغات ، وهذا النوع من المعانى يمكن ترجمته واستفادة الأحكام منه ، وبعض آخر من الأحكام والإرشادات يستفاد من المعانى الثانوية ، ونجد هذا كثيراً فى استنباطات الأئمة المجتهدين[2] ، وهذه المعانى الثانوية لازمة للقرآن الكريم وبدونها لا يكون قرآنا . والترجمة الحرفية إن أمكن فيها المحافظة على المعانى الأولية فغير ممكن أن يحافظ فيها على المعانى الثانوية ضرورة أنها لازمة للغة القرآن دون غيرها من سائر اللغات .

ومما تقدم يعلم : أن الترجمة الحرفية لا يمكن أن تقوم مقام الأصل فى تحصيل كل ما يقصد منه ، لما يترتب عليها من ضياع الغرض الأول برمته ، وفوات شطر من الغرض الثانى .

وأما أن الترجمة المعنوية ممكنة وجائزة : فذلك لأن الترجمة المعنوية ـ كما قلنا آنفا ـ عبارة عن شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى ، بدون محافظة على نظم الأصل وترتيبه وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه ، وذلك بأن يفهم

---

(١) فمثلا لو أراد إنسان أن يترجم قوله تعالى فى الآية(٢٩) من سورة الاسراء « **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط** » ترجمة حرفية لأتى بكلام يدل على النهى عن ربط اليد فى العنق ، وعن مدها غاية المد ، ومثل هذا التعبير فى اللغة المترجم اليها ربما كان لا يؤدى المعنى الذى قصده القرآن ، بل قد يستنكر صاحب هذه اللغة هذا الوضع الذى ينهى عنه القرآن ، ويقول فى نفسه : إنه لا يوجد عاقل يفعل بنفسه هذا الفعل الذى نهى عنه القرآن ، ولأنه مثير للضحك على فاعله والسخرية منه ، ولا يدور بخلد صاحب هذه اللغة المعنى الذى أراده القرآن وقصده من وراء هذا التشبيه البليغ . أما إذا أراد أن يترجم هذه الجملة ترجمة معنوية فإنه يأتى بالنهى عن التبذير والتقتير مصورين بصورة شنيعة ينفر منها الإنسان حسبما يناسب أسلوب تلك اللغة المترجم إليها ، ويناسب الف من يتكلم بها . ومن هنا يتبين أن الغرض الذى أراده الله من هذه الآية يكون مفهوما بكل سهولة ووضوح فى الترجمة المعنوية دون الترجمة الحرفية .

(٢) من هذا القبيل دلالة قوله تعالى فى الآية(٢٣٣) من سورة البقرة « **وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن** » على أن الولد ينسب الى أبيه ولا ينسب الى أمه فهذا معنى ثانوى يستنبط من دلالة اللام فى لفظ (له) أما المعنى الأصلى الذى سيقت له الآية فهو وجوب الانفاق على الوالدات .

obeikandi.com

المترجم المعنى المراد من الأصل على قدر ما يتيسر له ثم يُعبِّر عنه بلغة أخرى على قدر ما تتسع له هذه اللغة .

وعلى هذا فترجمة القرآن ترجمة معنوية لا تعدو أن تكون تفسيراً له بلغة غير لغته التي نزل بها ، وحيث اتفقت كلمة المسلمين وانعقد إجماعهم على جواز تفسير القرآن لمن كان من أهل التفسير بما يدخل تحت طاقته البشرية بدون إحاطة بجميع مراد الله تعالى ، فإنا لا نشك فى أن الترجمة المعنوية للقرآن داخلة تحت هذا الإجماع أيضاً ، لأن عبارة الترجمة المعنوية محاذية لعبارة التفسير لا لعبارة الأصل القرآنى ، فإذا كان التفسير مشتملاً على معنى الأصل وشرحه : بحل ألفاظه فيما يحتاج تفهمه الى حل وبيان مراده فيما يحتاج الى بيان ، وتفصيل معناه فيما يحتاج الى تفصيل ، وتوجيه مسائله فيما يحتاج الى توجيه ، وتقرير دلائله فيما يحتاج الى تقرير . . . ونحو ذلك من كل ما له تعلق بتفهم القرآن وتدبره ، كانت الترجمة المعنوية أيضا مشتملة على هذا كله لأنها ترجمة للتفسير لا للقرآن .

وقصارى القول : أن فى كل من التفسير والترجمة المعنوية بيان ناحية أو أكثر من نواحى القرآن التى لا يحيط بها إلا من أنزله بلسان عربى مبين ، وليس فى واحد منهما إبدال لفظ مكان لفظ القرآن ، ولا إحلال نظم محل نظمه بل لفظ القرآن ونظمه باقيان على حالهما صورة ومعنى من غير خلل ولا نقصان .

واذ قد انتهينا الى أن ترجمة القرآن الكريم ترجمة حرفية غير ممكنة ولا جائزة ، فمن الحق علينا أن نقرر بعد ذلك أن ترجمات القرآن التى زعم أصحابها أنها ترجمات حرفية له ، كلها ترجمات باطلة لا تقوم مقام القرآن . ولا تعبر عنه تعبيراً صادقا ، ولا يجوز لمسلم أن يطمئن اليها أو يعتمد عليها فى استخلاص عقيدة أو استنباط حكم .

* * *

● **وجوب الترجمة المعنوية إذا تعينت طريقا لتبليغ الدعوة :**

واذ قد انتهينا ـ أيضا ـ الى أن ترجمة القرآن ترجمة معنوية أمر ممكن وجائز ، فمن الحق علينا ـ أيضا ـ أن نقرر أن الترجمة المعنوية لا تقف عند حد الجواز فقط ، بل تتعداه ـ أحيانا ـ إلى مرتبة الوجوب ، فإذا كان لا سبيل الى تبليغ دعوة القرآن لمن لا يعرفون اللسان العربى إلا عن طريق الترجمة المعنوية ، فالواجب على المسلمين ـ وجوبا كفائيا ـ أن يقوموا بهذه الترجمة ، وأن يجعلوها

فى متناول كل إنسان بلغته التى يتخاطب بها ، حتى تبرأ ذمتهم من واجب الدعوة الى الله وإلى كتابه .

ومن زعم أن ترجمة القرآن على هذا النحو قد تؤدى إلى بلبلة وتشكك فى القرآن ضرورة اختلاف الترجمات وعدم اتفاقها فذلك زعم غير مقبول ، لأننا لم نقل إن الترجمة المعنوية حلت محل القرآن وأخذت كل خصائصه ومميزاته ، وانما قلنا : إنها ترجمة للتفسير الذى يخضع لأصول التفسير وقواعده ، والاختلاف فى التفسير لا يعيب القرآن لأنه اختلاف فى أفهام البشر وليس اختلافا فى كلام الله عز وجل .

ومن زعم أن ترجمة القرآن على هذا النحو تعوق غير العرب عن تعلم العربية التى هى المدخل الأساسى لتفهم الاسلام من مصادره الأصلية ، فذلك زعم لا نلتفت اليه ، لأن تعلم العربية بالنسبة لمن لا يعرفونها ـ وإن كان أمراً ينبغى أن نحرص عليه ـ ليس فرضا ، أما الإعلام بالدعوة الإسلامية وما تضمنه كتابها بأى لسان فهو الفرض الذى أوجب الله علينا معشر المسلمين ، ولا ينبغى لنا أن نعطل أمراً واجبا مخافة أن يعوق عن أمر لا يرى الاسلام وجوبه .

ومن زعم أن الترجمة على هذا النحو الذى أجزناه وأوجبناه أحيانا ليست جائزة على أى حال ، استنادا إلى ما فعله رسول الله ﷺ من أنه أرسل كتبا إلى هرقل وغيره ضمنها بعض آيات من القرآن الكريم كتبها باللسان العربى كما أنزلت ، كما فى كتابه الى هرقل : « من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين،فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[٣] ، و « **يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** »[٤] .

من زعم أن الترجمة المعنوية غير جائزة استناداً إلى كتابة الرسول ﷺ النص القرآنى كما هو منزل من عند الله ، فهو غافل عما فيه من إشاوة قاطعة على الجواز ، ذلك لأن الرسول ﷺ يعلم أن هرقل لا يعرف اللسان العربى ،

---

(٣) الأربسيون جمع أريسى وفى رواية اليريسيون . والمراد بهم من تحت امرته من العامة والفلاحين .

(٤) الآية ٦٤ من سورة آل عمران ونصها : « قل ياأهل الكتاب . . » الخ . وحديث كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هرقل مروى فى كتاب الايمان من صحيح البخارى .

ويعلم تبعاً أن الكتاب بما فيه من قرآن لابد أن يترجم له باللغة التى يعرفها وهى اللغة الرومية ، فكان ذلك بمثابة إذن صريح منه عليه الصلاة والسلام بترجمة الآية الى غير العربية ، وقد جاء فى صحيح البخارى أن هرقل دعا ترجمانه ، ثم دعا بكتاب النبى ﷺ فقرأه .. إلى آخره .

***

● **شروط الترجمة المعنوية :**

سبق أن قلنا إن تفسير القرآن الكريم من العلوم التى فُرِض على الأمة تعلمها . والترجمة المعنوية تفسير للقرآن بغير لغته ، فكانت ـ أيضا ـ من الأمور التى فُرِضت على الأمة ، بل هى آكد ، لما يترتب عليها من المصالح المهمة : كتبليغ معانى القرآن وإيصال هدايته إلى المسلمين وغير المسلمين ممن لا يتكلمون بالعربية ولا يعرفون لغة العرب ، وأيضا حماية العقيدة الاسلامية من كيد الملحدين ، والدفاع عن القرآن الكريم بالكشف عن أضاليل المبشرين الذين عمدوا إلى ترجمة القرآن ترجمة حشوها بعقائد زائفة . وتعاليم فاسدة ، ليظهروا القرآن لمن لا يعرف لغته فى صورة تنفر منه وتصد عنه ، وكثيراً ما ضجت الأصوات بالشكوى من هذه الترجمات الفاسدة ، لهذا نرى أن نذكر الشروط التى يجب أن تتوفر وتراعى فى الترجمة المعنوية حتى تكون ترجمة صحيحة مقبولة . واليك هذه الشروط :

أولا : أن تكون الترجمة على شريطة التفسير ، لا يعوّل عليها إلا اذا كانت مستمدة من الأحاديث النبوية ، وعلوم اللغة العربية ، والأصول المقررة فى الشريعة الاسلامية ، فلا بد للمترجم من اعتماده فى استحضار معنى الأصل على تفسير مستمد من ذلك ، أما إذا استقل برأيه فى استحضار معنى القرآن أو اعتمد على تفسير ليس مستمداً من تلك الأصول فلا تجوز ترجمته ولا يعتد بها ، كما لا يعتد بالتفسير إذا لم يكن مستمداً من تلك المناهل معتمداً على هذه الأصول .

ثانيا : أن يكون المترجم بعيداً عن الميل الى عقيدة زائفة تخالف ما جاء به القرآن . وهذا شرط فى المفسر أيضا ، لأنه لو مال واحد منهما الى عقيدة فاسدة لتسلطت على تفكيره ، فاذا بالمفسر أو المترجم يفسر أو يترجم وفقاً لهواه وتبعا لميوله فيصبح بذلك بمعزل عن القرآن وهداه ، ومتقولاً على الله بالهوى والغرض .

ثالثا : أن يكون المترجم عالماً باللغتين : المترجم منها ، والمترجم إليها ،

خبيراً بأسرارهما ، يعلم جهة الوضع والأسلوب والدلالة لكل منهما . وكثيراً ما وضعت ترجمات للقرآن ممن لا يحيطون علما بكلتا اللغتين أو باحداهما فجاءت مليئة بالأباطيل والأكاذيب على الله وكتابه .

* * *

● **أمثل الطرق لترجمة القرآن الكريم :**

وأمثل الطرق لترجمة القرآن الكريم أن يراعى فى الترجمة ما يلى :

١ ـ أن تتوفر فيها الشروط السابقة .

٢ ـ أن ينص فى مقدمتها على أنها ليست ترجمة حرفية وإنما هى ترجمة للمعانى التى فهمها المترجم أو غيره من القرآن ، فإن كان فيها خطأ فهو منسوب إلى المترجم أو المفسر وليس منسوبا إلى الله سبحانه .

٣ ـ أن يكتب النص القرآنى فى أعلا الصفحة ، ثم يكتب التفسير بعده فى نفس الصفحة ثم تكتب الترجمة بعد التفسير فى الصفحة ذاتها . حتى لا يتوهم متوهم أن هذه ترجمة حرفية للقرآن ، وحتى يكون النص القرآنى وتفسيره ، وترجمة هذا التفسير بين يدى القارىء بحيث يمكنه ـ إن كان من أهل النظر والرأى ـ أن يقارن بين كل ذلك ويتبين أين يقع الخطأ وأين يقع الصواب .

* * *